أضواء على الحريم السياسي

خيرية السقة

دار الفكر
دمشق - سورية
دار الفكر المعاصر
بيروت - لبنان

بسم الله الرحمن الرحيم

أضواء على كتاب

الحريم السياسي

أضـواء على كـتاب الحـريم السيـاسي/ خـيرية السَّقَّـة .-
دمشق: دار الفكر، ١٩٩٧ .- ٢٢٤ص؛ ١٧ سم.
١-٢١٨,٨ س ق هـ أ ٢- العنوان ٣- السَّقَّة
مكتبة الأسد
ع-١٩٩٧/٦/٨٣٨

٢١٠٫٤
س ح م

خيرية السَّقَّة

أضواء على كتاب

الحريم السِّياسي

دار الفكر
دمشق - سورية

دار الفكر المعاصر
بيروت - لبنان

1997
صناعة النشر
مسؤولية وإبداع

الرقم الاصطلاحي: ٠١٣, ١١١٧

الرقم الدولي: ISBN: 1-57547-363- 1

الرقم الموضوعي: ٢١٠

الموضوع: دراسات إسلامية

العنوان: أضواء على كتاب الحريم السياسي

التأليف: خيرية السقة

الصف التصويري: دار الفكر - دمشق

التنفيذ الطباعي: المطبعة العلمية - دمشق

عدد الصفحات: ٢٢٤ ص

قياس الصفحة: ١٧×٢٥سم

عدد النسخ: ١٠٠٠ نسخة

جميع الحقوق محفوظة

يمنع طبع هذا الكتاب أو جزء منه بكل طرق الطبع والتصوير والنقل والترجمة والتسجيل المرئي والمسموع والحاسوبي وغيرها من الحقوق إلا بإذن خطي من

دار الفكر بدمشق

برامكة مقابل مركز الانطلاق الموحد

ص.ب: (٩٦٢) دمشق - سورية

برقياً: فكر

فاكس ٢٢٣٩٧١٦

هاتف ٢٢٣٩٧١٧، ٢٢١١١٦٦

http://www.fikr.com/

E-mail: info @fikr.com

الطبعة الأولى

1418هـ = 1997 م

المحتوى

الموضوع	الصفحة
المحتوى	٥
كتاب الحريم السياسي	
المقدمة	٩
القسم الأول ـ إشكاليات كتاب الحريم السياسي	١٣
المقدمة	١٣
الحجاب	١٤
المرأة والميراث والحرب	٢٣
النشوز	٢٧
اللواط	٣٣
الرق والاستعمار	٣٨
الغرانيق	٤٢
نظرية طه حسين	٥١
زواج النبي ﷺ من زينب	٥٢
زواج عمر بن الخطاب	٥٩
هند بنت عتبة	٦٥
القسم الثاني ـ الجوانب المضيئة في كتاب الحريم السياسي	٧١
المقدمة : (جوانب مضيئة من مسيرة الإسلام)	٧١

الموضوع الصفحة

الأحاديث النبوية ٨٢
النساء والسفهاء ١٠٠
شخصية عمر ١٠٤
كتاب الخوف من الحداثة ـ الإسلام والديمقراطية
مدخل ١٠٩
الإسلام السياسي ، بين الأنظمة والمعارضة ١١٣
الإسلام والعقل ١١٣
الإسلام والعلم ١١٤
المعتزلة (التقليد العقلاني) ١١٤
الخوارج (التقليد الاحتجاجي) ١٣٠
الخوف من الديمقراطية ـ أزمة الضياع ١٤٦
مرحلة الإصلاحيين والقوميين ١٤٦
التيار الإسلامي (السلفية ـ الأصولية) ١٦٢
الخوف من الفردية (الرحمة مقابل الحرية) ١٧٥
الخيال (أدمغتنا الكبيرة في الخارج) ١٨٥
العصر الجاهلي ١٩٧
زمن عالمي إجباري ٢١٥

كتاب

الحريم السّياسي

المقدمة

يقول الأستاذ عبد الهادي عباس في مقدمة ترجمته لكتاب الحريم السياسي : « لقد أمر الإسلام بحرية المناقشات الدينية ، ونصح المسلمين بالتزام جادة العقل والمنطق في مناقشاتهم مع أهل الأديان الأخرى ، وأن يكون عمادهم الإقناع ، وقرع الحجة بالحجة ، والدليل بالدليل ، وفي هذا يقول تعالى : ﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ [النحل : ١٦/١٢٥] ويقول مخاطباً أهل الأديان الأخرى ﴿ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [البقرة : ٢/١١١] ولا يكتفي القرآن الكريم بذلك ، بل يغري الكفّار بالمناقشة والإتيان بالدليل على صحة دينهم ، فيتظاهر جدلاً بأنه لا يقطع بأنّه على حقّ ، وأنهم على باطل ، فيقول : ﴿ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ [سبأ : ٣٤/٢٤] ، ويذكر التاريخ أنّ الكثيرين من الخلفاء كانوا يشجعون على المناقشات الدينية ... أما ما يلاحظ من صور شاذة كاضطهاد

بعض القائلين بآراء مختلفة ، كإيذاء الإمام مالك ، والإمام أحمد بن حنبل ، فكان لأسباب سياسيّة ، وانحرافاً صريحاً عن مبادئ الإسلام » ، انتهى .

كما لفت نظري هذا الرأي في كتاب روجيه غارودي (الإسلام في الغرب) [ص٤٠] : كان الاعتزال أول من يطرح مشكلة العلاقات بين الإيمان والعقل ، وقد طرحها منذ البداية أسير المنطق الأرسطي ، منطق الهوية واللاتناقض ، وقانون الثالث المرفوع ، وهذا يعني ببساطة خضوع الفكر للغل الآتي .

الإجابة على كل الأسئلة بنعم أو بلا أو ماذا ؟، العالم هو إما أسود تماماً أو أبيض تماماً ، خلو من أي لون آخر ..

ثم يضيف في هامش الصفحة قوله : « في هذا العالم الشبحي ، وفي أواخر القرن العشرين لم نستطع بعد التخلص ، إذ ما زلنا في الحياة اليوميّة ، واللغة اليوميّة ، أسرى أرسطو » ، ففي السياسة مثلاً يسألك المرء هل أنت يميني أم يساري ؟ أو هل البلد الفلاني موال للأمريكان أم موال للسوفييت ؟.

وأضيف إلى ما سبق : أكثرنا أو بعضنا عندما يقرأ أيّ كتاب ، ما إن يستنكر منه فكرة أو عبارة أو رأياً ، حتى يغضب على الكتاب والمؤلّف ، لهذا أقدمت على تلك الدراسة المتأنيّة ، لنحمي الحقيقة القرآنية بالحوار وحتى الشك بوصفه طريقاً لليقين .

وأرجو ألاّ يمنعنا الشوك من قطف الزهور .

ولا تمنعنا وخزات النحل من قطف العسل .

ونرجو من الله سبحانه التوفيق ...

خيرية السقة

القســم الأول

إشكاليات كتاب « الحريم السياسي »[1]

الكاتبة : د. فاطمة المرنيسي[2]

المقدمة :

أناقش كاتبة مؤمنة كلّ الإيمان بالله والنبي والقرآن فهي تقول : « بدأ الإسلام كأمر بالقراءة ، لقد كانت أوائل الوحي

(١) كتاب الحريم السياسي (النبي والنساء).
ترجمة : المحامي عبد الهادي عبّاس ، عن اللغة الفرنسية ، يقول المترجم في مقدمة الكتاب : إنني إذ أقدم على ترجمة ، هذا الكتاب إلى اللغة العربية فإنّ ذلك لا يعني مطلقاً أنني مُسَلِّم بما جاءت به المؤلفة من أفكار واستنتاجات بل قد يكون رأيي ، أنّ هناك شطط ملحوظ ، في العديد من التعابير والتفسيرات التي قد تحتمل ، الكثير من الجدال والنقاش ، وكل هذا يقتضي ، بل يوجب نشره في اللغة العربية ، لمعرفة الرأي النقيض والمخالف .

(٢) الدكتورة الباحثة فاطمة المرنيسي من المغرب العربي متخصصة في العلوم الاجتماعية ، وخبيرة في اليونسكو ، وعدد من المنظمات الدولية ، وأستاذة في جامعة الرباط .

مزعجة ، وصفها لخديجة وهو مرتعب بالأصوات التي سمعها ، وقد هدّأت من روعه لتقنعه أن ما حصل له كان فريداً من نوعه ، كان النبي المختار ، وما أن مضت مفاجأة الآيات الأولى حتى اعتاد محمد (ﷺ) على الإيقاع الغامض وغير المتوقع للوحي ، ولسوف ينتظر اثنين وعشرين عاماً ، هذه الفترات التي ترعاه فيها العناية الإلهية ... [ص ٤٢] .

وتحدثت الكاتبة عن غزوة بدر ، ودعاء النبي لينصره الله تقول : « وعاجل الله بعد الجيش بخمسة آلاف من الملائكة غير المرئيين ، ولكنّ النبي لم يكتف بالدعاء ، بل استعمل كلّ التكتيك العسكري » . [ص ١١٢] .

الحريم السياسي والحجاب :

الكاتبة العربية وهي تجتهد وتحاور لإقناع المرأة المسلمة برفض الحجاب وقعت في كثير من التناقض تقول :

دعا النبي الناس لعرس زينب ، انصرفوا إلاّ ثلاثة ، خرج النبي مغيظاً ، فسلّم على زوجاته ، انصرف الرجال ، بقي

أَنس ، أسدَل الستـار ، وتلفـظ بـالآيـة ٥٣/سورة ٣٣ الآيـة التي أُوحيتْ لـه مبـاشرة من الله ﴿ يَـا أَيُّهـا الَّـذين آمَنُوا لاَ تَـدْخُلُوا بُيُـوت النَّبيِّ إلاَّ أَن يُـؤذَنَ لَكُم إلى طَعَـــامٍ .. ﴾ ، ﴿ وإذَا سَأَلتُمُوهُنَّ مَتَـاعـاً فَـاسأَلُوهُنَّ مِن وَرَاء حِجَـابٍ ﴾ ، وتضيف : نزلت الآيـة جوابـاً على حـالـة ، السرعـة غير المعتـادة للوحي ، لا تحاط مع الإيقاع النفسي لعمليات الوحي ، وبخاصة ما يعرف عن صفـة النبي ، لا يمكن إلاّ أن نتعجب من عـدم التنـاسب بين الحدث والجواب على الحدث ، كان النبي مشهوراً بقدرته الفائقـة على التحكّم بنفسه ، لم يكن يعمل مطلقـاً بـانفعـال ، بـل كان يأخذ أياماً برمتها كي يفكّر عنـدمـا تعرض مشكلـة ، لقـد تعود على تحمل النـاس الثقلاء ، كيف يمكن تفسير إغـاظتـه التي هي على هذه الدرجة من الضـآلـة لتنطلق بمثل هـذه السرعـة ، وأن يتخذ قراراً على هذه الدرجة من الشدّة بالنسبة للحجـاب الـذي عمل على تفجير العالم الإسلامي إلى اثنين ، كان عليـه أن يطلب ألاّ يدخلوا دون استئـذان ، كان محبوبـاً ومحترمـاً كي يطـاع ... [ص١١٠ ، ١١١ ، ١٢٢] ، لو قطعنا هذه السطور عما سبق من

إيمان الكاتبة بالوحي والنبوة والملائكة التي شهدت بدراً ، لقلت أنها تتكلم هنا بمنطق الملحدين ..

أقول للكاتبة : النبيّ لم يتخذ القرار ، بل حكمة الله قضت أن تتنزل الآيات مقترنة بظرف أو سؤال ليكون الفهم والاستجابة ، كما هي أحدث أساليب التعليم في العصر الحديث ، سواء أسرع الوحي أو تأخرّ ، هذا من شأنه تعالى ، فالكاتبة نفسها ذكرت موقفاً ظهر فيه الوحي فجأة ، عندما جاءت امرأة للرسول تشكو زوجها الذي ضربها ، قال الرسول : « القصاص » ثم توقف ، وقال : « أردت شيئاً وأراد الله شيئاً آخر » ص ١٨٥ .

ولقد تأخر الوحي شهراً والمنافقون يتهمون عائشة ، والنبي في حالة ألم وحيرة ، حتى نزلت عليه[٣] الآيات من سورة النور ببراءة عائشة .

---

(٣) الإمام جلال الدين المحلى والشيخ جلال الدين السيوطي ، تفسير الجلالين ٥٢٩/٢٠ أسباب نزول الآيات (١١ ـ ١٢) من سورة النور ، دمشق مكتبة الملاّح .

وتحت عنوان ـ العبودية ـ ص١٨٧ قالت : لقد أكدّ الإسلام جدارة العبد بصفته شخصاً بشريّاً ليعمل على مستوى القواعد التي تمس بالعلاقات الاجتماعية ، ومن نوع جنسي ، وبخاصة تحريم بغاء النساء العبدات ، وليضع الإسلام حدّاً لهذا البغاء سوف يشجع المسلم تزويج العبيد ، ولكنّ القرار الأكثر بروزاً يبقى ذلك الذي يسمح بزواج الرجال والنساء الأحرار مع العبيد (المسلمين) ، وتضيف : إن الرقّ لم يكن يُغَذَى إلا بمصدرين شرعيين : الولادة في العبودية ، والأسر في الحرب ، وسيحاول الدين الجديد التدخل في هذين المستويين ؛ لا يجوز لمسلم أن يقع في حالة العبودية من قبل مسلم آخر ، وعلى مستوى الولادة قلب الإسلام النظام بصورة نهائية : إنّه يعلم أن الولد المتولد من قران بين رجل حر وامرأة رقيقة هو ولد حر .

كل هذا كلام صحيح يبرز عظمة الإسلام وإنسانيته ، إلا أن الكاتبة تناقض كلامها إذ تقول : ص٢١٢ ، إن الافتراءات ضد عائشة كان من الممكن أن تختلط بعدم الأمان الذي يسود في الشوارع ، المحيطون بالنبي سوف يمضون ليقدموا له تجاه عدم

الأمان وأمام الشائعات حلاً عبودياً ، حماية النساء ، النساء الحرات بصورة خاصة بتحجيبهن وبقاء العبدات غير محجبات كان اعترافاً ضمنياً بإمكانية الدنو منهن والإعتداء عليهن ، لم يعد ممكناً ضمان أمان الجميع ، بما فيهم العبدات ، وتضيف ص٢١٨ : إن النساء العبدات قد خُفّضْنَ إلى مستوى العاهرات ، وتذكر الآية الكريمة : ﴿ يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ المؤمِنينَ يُدْنِينَ عَلَيهِنَّ مِن جَلاَبِيبِهِنَّ ذَلِكَ أدنَى أن يُعْرَفْنَ فَلا يُؤذَيْنَ ﴾ [الأحزاب : ٥٩/٣٣] إذا قارنا هذه الأقوال مع أقوال أخرى في الصفحة نفسها : أشار إليها القرآن كمرآة للحياة الجاهلية ، فالآية [٣٣ من السورة ٢٤] ، سورة النور تتعرض لمسألة الزنى ، تؤكد على وجود بغاء منظم في المدينة ؛ ﴿ وَلاَ تُكرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إنْ أَرَدْنَ تَحَصُّناً لِتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإنَّ اللهَ مِن بَعدِ إكرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رحِيمٌ ﴾ وينصح الله سبحانه هؤلاء ، الآية ﴿ وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إن عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خيراً ﴾ أتساءل : كيف استطاعت الكاتبة أن توفق بين قناعتها

أن الإسلام جفف روافد الرّق وسمح بالطلاق والتعدد في الزوجات لقطع الطريق عن الزنى ص ٧٨ وأنزل آيات صريحة بالنهي عن إكراه العبدات على الزنى ومع ذلك تفسّر آية الحجاب أنّه اعتراف ضمني بالاعتداء على العبدات ... تنزّه القرآن عن مثل هذه المعاني .

كما أشير : أن حادثة الإفك حدثت بعد نزول[٤] الحجاب وليس قبله ... فالله سبحانه يقول : ﴿ إنَّ الَّذين جَاؤوا بِالإفْكِ عُصبَةٌ مِنكُم لا تَحْسَبُوهُ شَرّاً لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيرٌ لَكُمْ ﴾ [النور : ١١/٢٤] وبرأيي كانت عظة لكل مسلم عبر العصور أن يقاوم الشائعة ومالها من تأثير خطير في حياة الناس ، يقول المفسرون ظلت عائشة رضي الله عنها فخورة أن القرآن وصفها بالطيبة ، ووعدها مغفرة ورزقاً كريماً[٥] .

---

(٤) المرجع نفسه قول عائشة : وكان صفوان بن المعطّل قد عرّس وراء الجيش فأدلج فأصبح عند منزلي فرأى سواد إنسان نائم فعرفني حين رآني ، وكان يراني قبل أن يضرب عليّ الحجاب .

(٥) المرجع نفسه تفسير الجلالين ٤٦٦/١٨ .

لقد استنكرت تفسير الكاتبة أن الحجاب فُرِض على الحرة وضحّى بالعبدة ، وهذا يتناقض مع مبادئ الإسلام وعدالته ... ولكن مع الأسف هذا التفسير ورد في تفسير الجلالين(٦) ، يقول : (ذلك أدنى) أقرب إلى (أن يعرفن) بأنهن حرائر (فلا يؤذين) بالتعرض لهن بخلاف الإماء ، وأيضاً في تفسير ابن كثير(٧) ، يقول : سئل الزهري هل على الوليدة خمار متزوجة أو غير متزوجة قال : « عليها الخمار إن كانت متزوجة ، وتنهى عن الجلباب ، لأنه يكره لهن أن يشبهن بالحرائر المحصنّات ، (أدنى أن يعرفْن) ؛ أنّهن حرائر لسن إماء .

وكان تفسيري الخاص : ﴿ أَدنَى أَن يُعرَفْنَ فَلاَ يُؤذَينَ ﴾ أن الحجاب لا يبعد الأذى بشكل مطلق ، ولكنّ المرأة المحجبة أقل تعرضاً للأذى ، لأن الفاسق يرتدع أمام امرأة ملتزمة بمبادئ الحرام والحلال ، فالحجاب في كل زمان ، إن لم يقترن

---

(٦) المرجع نفسه تفسير الجلالين ٥٦٣/٢٢ .

(٧) محمد علي الصابوني مختصر ابن كثير جـ١١٥/٣ دار القرآن بيروت الطبعة الثالثة ١٣٩٩هـ ، ابن كثير ٥١٨/٣ دار المعرفة بيروت ١٩٨٢ .

بالإيمان والقناعة لا فائدة منه ؛ وبما أن تفسيري الخاص لا يكفي ، لهذا بقيت أبحث عن تفاسير الأقدمين إلى أن وجدت ضالتي ، في كتاب **تفسير آيات الأحكام** لمحمد علي الصابوني[٨] .

جاء فيه : تفسير أبو حيّان التوحيدي خلافاً للجمهور : « والظاهر أنّ قوله تعالى : ﴿ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ يشمل الحرائر والإماء ، والفتنة بالإماء أكثر لكثرة تصرفهن ، بخلاف الحرائر ، يحتاج إخراجهن من عموم النساء إلى دليل واضح .

وقوله : ﴿ أَدنَى أَن يُعرَفنَ ﴾ أي يعرفن لتسترهن بالعفة ، فلا يتعرض لهن ولا يلاقين بما يكرهن ، لأن المرأة إذا كانت في غاية التستر ، لم يقدم عليها . [البحر المحيط لأبي حيّان ٢٠٥/٧] .

- حلم النبي بمجتمع تتحرك فيه النساء بحرية ولكن لم يكن لديه في ظروف أزمة المدينة الحربية في السنوات (٥-٦-٧) الكثير من الخيار لكي يواجه انعدام الأمن في المدينة بعد موقعة

(٨) محمد علي الصابوني تفسير آيات الأحكام ٢٧٩/٢ الطبعة الثانية ١٩٧٧ الطبعة الأولى ١٩٧١ ، دمشق .

(أحد) ، وحصار (الخندق) ، فإما أن يتحمل ويقبل ويعيش هذا الخطر ، منتظراً ترسّخ مصدر السلطة الجديدة ، اللهَ ودينه في الأذهان ؛ الإسلام الذي ينظم الرغبات ، وإما أن يعاود تنشيط القبيلة ، كنظام شرطة المدينة ، ثم حقق المسلمون النصر ودخل النبي الكريم مكة المكرمة ، وعاد الأمان إلى الشارع ، ولكن النساء المسلمات سوف يظهرن حجابهن ، كبقية أثر لحرب أهلية ، لن تنتهي أبداً ... [ص ٢٢٤ ، ٢٣١] هذا ملخص استنتاج الكاتبة وقناعتها بالنسبة للحجاب ، إنه كآية منسوخة ، وأنا أطرح هذا الرأي لمزيد من الحوار .

وكلمتي الأخيرة عن الحجاب ، إنه لم يفصل بين المرأة والرجل فالنبي الكريم رافقته المرأة في الحروب ، ورافقته في أداء فريضة الحج ، وعائشة رضي الله عنها علّمت الرجال ، وكان الأجدر بالكاتبة أن تجتهد ألاّ يكون الحجاب سوى مظهر محتشم للمرأة يبعدها عن استغلال بيوت الأزياء التجارية ، ولا يعيق خطواتها في مجال العلم والعمل والفن الرفيع ..

المرأة والميراث والحرب في كتاب الحريم السياسي

تقــول الكاتبــة : إن النســاء كنّ مسرورات من التغيير ، فالسورة /٤/ سورة النســاء سوف تحمل اسمهن ، وتتضمن القوانين الجديدة حول الإرث الـذي يجرد الرجـال من امتيـازاتهم ، ليس بأن النساء لم تعـد تورث كما تورث الجمـال والنخيل فحسب ، بل إنهن سوف يرثن أيضـاً ، قـال تعـالى : ﴿ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الوَالِدَانِ والأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مَمَّا تَرَكَ الوَالِدَانِ والأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أو كَثُرَ ﴾ [النســاء ٤/٧] ، وتعقب الكاتبة : كان لهـذه الآيـة وقع القنبلـة ، إذ كانت النسـاء تشكّل جزءاً من الأمـوال المـوروثـة للرجـال ، لقـد أفهمتْ هـذه الآيـة الرجـال أن محمـداً وربّـه لم يعملا دائمـاً في اتجـاه مصـالحهم ، وأنّ الدين الجـديـد لم يكن وعـداً بـالفتوحـات فحسب ، وإنمـا كان نظاماً أخلاقياً .. [ص ١٤٥ ـ ١٤٦] .

ـ هكذا أجادت الكاتبة إبراز ثورة الإسلام ، ولكنها تعود لتناقض نفسها فتقول : بعد نجاح (أم سلمة) والآيات المؤكدة لمساواة النساء ، والحق في الإرث أتت آيات أخرى أخرّت مساواة الجنسين ، وأعادت الهيمنة الذكورية .

أقول للكاتبة :

أولاً : ليست السماء مجلس أمة يصدر قوانين بحسب مقدرة المرافعة عند النواب .

ثانياً : ليست (أم سلمة) وراء نزول آية الميراث ، فكما ورد في تفسير الجلالين[٩] ؛ امرأة جاءت إلى النبي تشكو أنّ عندها بنتان وعمها لا يمنحها مالاً ، ولن يتزوجن دون مال ، فنزلت آية الميراث .. وتتابع الكاتبة أقوالها ، وهي تتحدث عن السماء كأنها مجلس أمة فتقول : كان انتصار النساء لمدة قصيرة جداً ، ليس فقط لأن السماء لم تعد تردّ على تساؤلاتهن ، ولكن لأنهن يضفن مطاليب جديدة ، فتنزل من السماء آياتٍ حازمة معاكسة ، وتضيف : تدخل الله ليدافع عن الرجال ويؤكد

(٩) تفسير الجلالين ص١٩٧ أسباب نزول الآية ٧ .

امتيازاتهم ص١٥٦ الآية ﴿ وَلاَ تَتَمَنَّوا مَا فَضَّلَ اللهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ ﴾ [النساء : ٣٢/٤] والآن لو تساءلنا ما المطالب التي لم توافق عليها السماء ؟! تقول الكاتبة : تأكيد النساء أن المساواة تمر بالثروة ؛ إذن لكي يكنّ مساويات فعلاً للرجال يجب أن يعطيهن الله الحق بممارسة الحرب ، وأن يحصلن على الغنيمة ، وتتابع : يقول الطبري : هذا الجزء ﴿ وَلاَ تَتَمَنَّوا مَا فَضَّلَ اللهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ ﴾ جواب على طلب النساء بحمل السلاح ، فرأي الكاتبة أن السماء لم تنصف المرأة ، فهل حقاً تجد المرأة نفسها قادرة على القيام بدور الرجل نفسه في الحرب ! وها نحن نجد حتى يومنا هذا ما زال دور المرأة في المجال العسكري هامشياً في جميع الدول المتطورة دون استثناء وهذا لا ينتقص من قيمة المرأة ، لأن الحرب هي الوجه القبيح للحياة .. قال تعالى : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ القِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُم وَعَسَى أَن تَكرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيرٌ لَكُم ﴾ [البقرة : ٢١٦/٢] . والطلب الثاني للنساء حسب رأي الكاتبة الاحتجاج على الآية ﴿ لِلذَّكَرِ مِثلُ حَظِّ الأُنثَيَينِ ﴾ [النساء : ١١/٤] [ص١٥٦] . أقول هنا بالنسبة

للميراث ، المفهوم جداً أن المرأة المسلمة حرّة في مالها وليست مكلفة بإعالة غيرها ، بينما شقيقها مكلّف بشتى المسؤوليات ، إنها لا تشعر أبداً حتى يومنا هذا أنها مغبونة ، وحقّها في الميراث منتقص ، وأضيف : بالنسبة للحرب والقتال ، إن نساء قادرات على حمل السلاح والمشاركة في المعارك كاستثناء لم يمنعهن الإسلام من القتال ، مثل خولة بنت الأزور ومثل نسيبة الأنصارية[١٢] التي دافعت عن النبي في معركة (أُحُد) ، وظلت فخورة بذلك .

وأما عبارة الكاتبة : « تدخل الله ليدافع عن الرجال » لا أدري كيف وفقَتْ الكاتبة بين إيمانها وبين هذه العبارة التي لا تليق بالخالق جلّ ذكره ، فالله خلق الرجل والمرأة وأرسل تشريعاً يحقق الحياة السليمة لكل منهما .

(١٢) ابن كثير السيرة النبوية جـ٣/٦٧ ، نسيبة الأنصارية بنت كعب المازنية ، أم عمارة .

الحريم السياسي ومسألة النشوز

أثارت الكاتبة ص١٨٤ موضوع النشوز ، بقولها : إن ربّ المسلمين يضفي صفة القداسة هنا على حق الرجال بضرب زوجاتهم في حالة النشوز ، [سورة النساء آية ٣٤] وتضيف : كيف يفسر الطبري هذه الآية المشكلة ﴿ الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ ﴾ ، تعني أنهم يستطيعون تأديبهنّ ، ولكن لا يوجد إجماع على مدى سلطة الرجال على النساء عندما تتعلق بالنشوز أي العصيان في نطاق الجنس ، إذا رفضت المرأة التجاوب للعلاقة الجنسية ، فهل للرجل أن يُكْرِهها ، أو يقاطعها ، هل يشاركها في الفراش أو يطردها من مخدعه ، لا يكلمها ويقاسمها الفراش ، وهكذا بسخرية لاذعة تتكلم الكاتبة عن موضوع يتعلق بالحفاظ على الحياة الزوجية والأسرة ، وتقول : لقد كان الفقهاء المساكين في كل حالاتهم في حَيْرة وارتباك ، وتشير إلى رأي (بلاشير) الذي يترجم النشوز بأنه عصيان ، تاركاً بعده الجنسي ، ورأي (ماسون) الذي يترجمه بعدم الأمانة .. ورأي

الشرّاح المسلمون يفسرون النشوز بأنه تمرد النساء ورفض طاعة الزوج عندما يتعلق الأمر بالعمل الجنسي .

ولكن لو تحققنا من معنى النشوز هل هو حقاً ما أوردته الكاتبة يتعلق بالعمل الجنسي فقط إذ تقول أيضاً في ص١٨٨ : رأي الطبري : إذا وطأها لا يكلمها ، وتعلق : وجد بعضهم هذا التفسير مغلوطاً فالآية تقول : يجب هجرهن في المضجع ، ليس بعدم توجيه الكلام للمتمردة فحسب ، بل يجب منعها من لذة الفراش المشترك .

ـ وأجيب الكاتبة[1] : إن كانت المتمردة أصلاً ممتنعة عن الانضمام لفراش زوجها حسب التفسيرات التي جئتِ بها ، ورافضة لذة هذا الفراش المشترك ، فكيف يُعَدُّ هجر المضجع وحرمانها من لذة الفراش عقاباً لها ؟!.. هنا أجد تفسير (بلاشير) النشوز العصيان ، و (ماسون) عدم الأمانة ، أقرب

(١) النشوز : المرأة السّادية غير الطبيعية ، لا يرضيها ، ولا يشعرها بأنوثتها إلا الضرب ، والمرأة الطبيعية العادية لاتحتاج إلى ضرب ولو عاشت مع زوجها قرناً من الزمن .

إلى المنطـق ، كما جاء في تفسير ابن كثير أيضـاً المرأة النـاشز هي المرتفعة على زوجها ، التاركة لأمره ، المعرضة عنه .

إذن النشـوز لا يتعلـق فقـط بـالعمـل الجنسي ، فـالمرأة النـاشز ، الرافضـة لظروف زوجهـا ، لأسلوب معيشتـه ، وهـذا كثير مـا يحـدث في الواقـع ، فتـاة تـزوجت صغيرة حسب رغبـة أهلها بعد أن تكتمل شخصيتهـا تجـد نفسهـا مغبونـة بهـذا الزواج فتتمرد ، فتاة تزوجت وفي خيالها أحلام معينة فتصدم بـالواقع ، فتاة تقـارن بين مستوى معيشتهـا بمستوى الأخريـات فتطـالب زوجها بتكاليف عاجز عن تلبيتها ، فتتمرد ، وربما تدفعه لطرق الثروة غير المشروعـة ، وهـذه المـواقف تنسجم معهـا خطـوات الوعـظ والهجر والضرب ثم الطلاق .. الـوعـظ للتفـاهم ، والهجر لتشعر المرأة أن زوجها زاهد في مجال لها فيه سلطان عليـه ، أمـا مرحلة الضرب التي تأتي بعـد فترة زمنيـة هي الوعـظ والتوجيـه والتفاهم وفترة زمنية أخرى هي الإهمال والهجر .. تـأتي المرحلـة الثالثة . وهنا لنتذكر أن الإسلام ليس دينـاً روحانيـاً ومثاليـاً ، بل هو دين الحياة البشرية ، دين يجب أن يناسب كل البيئـات

الاجتماعية المتنوعة ، وإننا في الواقع المعاش نجد أن لجوء الإنسان إلى استخدام يده بضرب الآخر تعبيراً عن الغضب والاستياء موجود ، ونشاهده على شاشة التلفزيون في أرقى المجتمعات ... إنها خطوات علاجية يلجأ إليها الزوج حرصاً على الحياة الزوجية من الانهيار .. وأضيف : ليست الزوجة هي الناشز فقط ، بل قد يكون الزوج هو الناشز ، والإسلام وضع العلاج لنشوز الزوج ، قال تعالى : ﴿ وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَت مِن بعَلِها نُشُوزاً أو إعرَاضاً فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَن يُصلِحَا بَيْنَهُمَا صُلحاً والصُّلحُ خَيرٌ ﴾ [النساء : ١٢٨/٤] .

أما قول الكاتبة : إنهم يقدمون لنا هذه الآية اليوم ليؤكدوا على السيادة الذكورية ، كما لو أنها تتعلق بآية دون غموض ، ودون تباين ومنازعة ، تتجاهل الكاتبة التفسيرات العديدة لآية : ﴿ الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّساءِ بِمَا فَضَّلَ اللهُ بَعْضَهم عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنفقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ ﴾ [النساء : ٣٤/٤] ، ولكن إذا قرأنا تفسير فقهاء ليس للمرأة وجود في حياتهم إلا بشكل سلبي ، فيأتي التفسير بأسلوب استفزازي ، كما ورد في تفسير ابن

كثير[١٤] ، هكذا : الرجل حاكم وآمر ومؤدب .. إلخ وفي تفسير الجلالين[١٥] أيضاً : (الرجال قوّامون) مسلطون ، يؤدبوهنّ ، ولكن لنقرأ تفسير الدكتور عبد الواحد الوافي عميد جامعة الأزهر يقول في كتابه « المرأة في الإسلام »[١٦] القائم على عمل هو المسؤول عنه ، فالرجل تقع عليه مسؤولية الأسرة ورعايتها ، وهو المكلّف بالإنفاق ، فدافع الضرائب في الدول المتقدمة يشرف ويراقب .. ويقول أيضاً : نحن بصدد واجبات يحميها القانون حفاظاً على الأسرة ، إن قصرّ الزوج في الإنفاق أرغمه القانون إلى درجة قد تؤدي إلى حبسه ، وإن نشزت الزوجة ، أي لم تشأ أن تسكن حيث يسكن ، تدخل القانون وأرغمها بالعودة للبيت بعد معاينة هذا البيت ، وهناك وسائل أخرى غير الإكراه ، أباح الإسلام الطلاق للناشز ، ونقرأ أيضاً في كتاب المفكرّ

---

(١٤) ابن كثير ٥١٨/٣ دار المعرفة بيروت ١٩٨٢ ، محمد علي الصابوني مختصر ابن كثير جـ ٣٨٥/١ .

(١٥) تفسير الجلالين ١١٠/٥ .

(١٦) الدكتور علي عبد الواحد وافي (المرأة في الإسلام) ص٥٤ ـ ٥٥ دار نهضة مصر القاهرة الطبعة الثانية .

الفرنسي روجيه جارودي[(١٧)] « الإسلام في الغرب » يقول : وحين يستندون على الآية ﴿ الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ ﴾ فإن الفقيه الظاهري ابن حزم يجيب : بأن الآية لا تمنح الرجل أي حق للتصرف بثروة زوجته ولكنها تعترف له فقط بمسؤولية معنوية ، القوامة عليها بمعنى أنه ملزم بإسكانها في بيته ، وملزم بأن يقاسمها مسكنه كلما انتقل إلى مسكن جديد ثم يستشهد الكاتب بالآية الأولى من سورة النساء التي تعلن البديهة الأساسية قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِن نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾ .

ويفسرّ : نفس واحدة ، أصبحت نفسين متساويتين في الكرامة ، مختلفتين في الوظيفة .. وأخيراً أضيف « الرجال قوّامون » لا تعني التسلط والتحكم كما فسر ابن كثير وصاحب تفسير الجلالين .. فآية قرآنية وصفت لنا تلك العلاقة بين الزوجة والزوج قال تعالى : ﴿ وَمِن آيَاتِهِ أَن خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنفُسِكُمْ أَزواجاً لِتَسكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَوَدَّةً وَرَحمَةً ﴾ [الروم : ٢١/٣٠] .

(١٧) روجيه غارودي ، الإسلام في الغرب ٧٧/٢ ومابعدها . ترجمة د. محمد مهدي الصدر ١٩٩١ دار الهادي ، بيروت .

شبهات أخرى قدمتها الكاتبة للقارئ الغربي

جدول حول اللّواط ص ١٧٥

تقول : حدثان اثنان سوف يستخدمان كصاعقين مفجرين أولهما يتعلق برفض امرأة أنصارية بعض الأوضاع الجنسية مع زوجها ، والثاني خصام زواجي استعمل فيه الزوج العنف ، ولجأت المرأتان للنبي ، انتظر النبي الوحي من السماء ، وأعطت السماء الحق للرجلين ، عندما حضرت المرأة أمام النبي المشرّع تلا هذه الآية [٢٢٣ ، من السورة ٢] التي تعطي الرجال وحدهم المبادهة في مادة الأوضاع الجنسية الآية : ﴿ نِسَاؤُكُم حَرْثٌ لَكُم فَأْتُوا حَرْثَكُم أَنَّى شِئْتُمْ ﴾ وتضيف : يعلمنا الطبري عبر عرض مؤثر للشهود أنّ هذه الآية البعيدة عن قفل باب النقاش ، لم تفعل سوى معاودة إطلاقه ، بعضهم قال : إنه أباح اللواط ، وقال البعض الآخر : إنه حرّمه ، نحن والطبري أمام إحدى هذه الآيات الغامضة ، إن الطبري المدقق لفحص /٤١/ شهادة بعضها

يقول : إن الآية تضفي القداسة على حق الرجال باللواط بنسائهم ، وتقول : ما كان مؤكداً إذن هو أن السماء بهذه الآية قد ساندت الرجال ، كان لهم الحق أن يتخذوا الأوضاع التي يريدونها ، وليس للنساء الاحتجاج وليس لهن إلا أن يخضعن لنزواتهم ... « ورأيُ الطبري الخاص : الآية تسمح للرجل أن يجامع زوجته كما يريد من الأمام أو الخلف » .

هكذا ببساطة تتهم الكاتبة السماء بالانحياز للرجال اللواطيين ، وعدم إنصاف المرأة وبعد أن انتهت من كل هذا التشنيع ، أشارت إلى رأي الجوهري : طريق الفرج المكان الوحيد حيث حرث المني وإمكانية زرع الولد تكون مضمونة .

كان بإمكان الكاتبة وقد وصلت لهذا التفسير أن تلغي كل ما قبله ، ولنتذكر أن الكتاب موجه للقارئ الغربي الذي لا يعرف الكثير عن الإسلام حيث قدمت له كاتبة عربية مسلمة شبهة جاهزة عن الإسلام .

أما تعليقي على تفسير الطبري ، **أولاً** : يكفي أنه فسّر كما تقول الكاتبة نفسها في ص١٨٩ أن هجر المرأة في السرير يعني

ربطها بالحبل ، فالهجر هو الحبل ، لكي نسقط بعض تفسيراته البعيدة عن منطق الإسلام ، وقد علّق محمد شاكر بقوله : أي تخلف من جانب أحد كبار الخبراء بالقرآن والسنة .

ثانياً : ويكفي أيضاً أن نقرأ الآيات من أولها لندرك أننا إزاء آية ليس فيها أي غموض ﴿ نِسَاؤُكُم حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُم ﴾ تبدأ الآيات هكذا : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلاَ تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللهُ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ وَقَدِّمُوا لأَنفُسِكُمْ واتَّقُوا اللهَ واعْلَمُوا أَنَّكُم مُلاَقُوهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [البقرة : ٢٢٢/٢ ـ ٢٢٣] ، **فأي قارئ ملم باللغة العربية يدرك أنّ الإسلام يحرّم اللواط** ، وإلا لما كان اعتزال النساء في المحيض حتى يطهّرن .

وهناك أحاديث كثيرة وردت في كتاب (تفسير ابن كثير)[٢٠] حول تفسير الآية :

(٢٠) محمد علي الصابوني مختصر ابن كثير جـ ١٩٥/١ ـ ١٩٦ ، ابن كثير جـ ٢٥٨/١ وما بعدها .

روى الإمام أحمد عن الأنصاري أنه سأل رسول الله ما يحل لي من امرأتي وهي حائض قال : ما فوق الإزار ؛ ولأبي داود عن معاذ بن جبل قال : سألت رسول الله عما يحل لي من امرأتي وهي حائض قال : ما فوق الإزار والتعفف عن ذلك أفضل .

وقال ابن عباس ومجاهد وعكرمة : « من حيث أمركم الله ، فيه دلالة حينئذ على تحريم الوطء في الدبر، وقوله تعالى ﴿ نساؤكم حرث لكم ﴾ ، قال ابن عباس : الحرث موضع الولد أي كيف شئتم مقبلة ومدبرة كما ثبت بذلك الأحاديث ، قال البخاري عن جابر : كانت اليهود تقول إذا جامعها من ورائها جاء الولد أحول ، قال رسول الله : مقبلة أو مدبرة إذا كان ذلك في الفرج ، رواه مسلم وأبو داود ، وقد وردت الأحاديث المروية بالزجر عن فعله وتعاطيه فقال الرسول ﷺ رواه الإمام أحمد : « استحيوا إن الله لا يستحي من الحق ، لا يحل أن تأتوا النساء في حشوشهن أي أعجازهن » .

وقال أبو بكر النيسابوري بسنده عن إسرائيل بن روح سألت مالك بن أنس ما تقول في إتيان النساء في أدبارهن قال :

« ما أنتم إلا قوم عرب ، هل يكون الحرث إلا موضع الزرع » لا تعدو الفرج ، قلت يا أبا عبد الله إنهم يقولون إنك تقول ذلك قال : يكذبون عليّ ، يكذبون عليّ . ثم يختتم ابن كثير كل هذا بقوله : فهذا هو الثابت وهو قول أبي حنيفة والشافعي وأحمد بن حنبل وقول سعيد بن المسيّب وأبي سلمة وعكرمة وطاووس وعطاء وسعيد بن جبير وعروة بن الزبير ومجاهد والحسن وغيرهم من السلف ، إنهم أنكروا ذلك أشدّ الإنكار ، ومنهم من يطلق على فعله الكفر ، وهو مذهب جمهور العلماء .. وفي تفسير الجلالين(٢١) ﴿ نساؤكم حرث لكم ﴾ أي محل زرعكم الولد .

أخيراً أقول : إن الحلال والحرام في هذا الموضوع واضح حتى للمرأة المسلمة الأمية فالمرأة يحق لها طلب الطلاق إن طلب منها زوجها ممارسة غير شرعية ، ومع هذا تدّعي الكاتبة أنها والطبري أمام آية غامضة ، بل إنها تجزم أن الآية سمحت باللواط [تنزه القرآن عن هذه المعاني] .

---

(٢١) تفسير الجلالين ص ٤٧ .

« الرق ، والاستعمار » في كتاب الحريم السياسي

تقول الكاتبة : ولكن رغم الآيات والأمثلة التي ضربها النبي ، سيبقى المجتمع الإسلامي مجتمعاً عبودياً لقرون طويلة ، ولا يتراجع عنه إلا تحت ضغط الاستعمار في القرن العشرين ، وتقول : بما أن الإسلام حرّم الرّق ، فكيف أمكن له أن يستمر في الوجود ؟ وتعقب : بخدع لفظية وقانونية .. سيستفاد من عصر الفتوحات لرد المغلوبين إلى الرّق .

ـ أستطيع أن أقول هنا : إن استمرار الرّق في البلاد الإسلامية إلى ما قبل عهود الاستعمار كان يشكل مقداراً ضئيلاً ، ويقتصر وجوده ضمن دائرة القصور ، وكانت الفرصة دائماً متاحة لهم من خلال التشريع الديني للوصول إلى أعلى المراتب ، فقد تحولت بعض الجواري إلى أمهات للخلفاء . كما تشير الكاتبة نفسها : إن الجواري رجعن للمعرفة كي يعدلن شرطهن يلدن أولاداً من جنس ذكوري ، ويدفعن بهم إلى السلطة ، وكن يستعملن المؤامرات للوصول إليها .. [ص ٢٣٥] .

ـ وكذلك تحول المماليك إلى حكام وأبطال تاريخ ، قُطُز ، بيبرس . وإن كان الاستعمار في القرن العشرين قد ألغى العبودية قانونياً ، ولكن هذا الاستعمار حوّل الشعوب المستعمرة على أرض الواقع إلى عبيد لتحقيق مصالح المستعمرين الاقتصادية ، وتوفير الرفاهية لشعوبهم .. يقول الفيلسوف الفرنسي (جان بول سارتر) في كتابه (عارنا في الجزائر)[٢٢] : مادامت الإنسانية تعني أن يتمتع الناس بحقوق واحدة ، فلابد إذن أن يُصنع من الجزائري رجل أسفل دوني ، حتى لا يكون بوسعه المطالبة بهذه الحقوق ؛ في نظر معظم المستوطنين الفرنسيين في الجزائر أنهم ذوو حق إلهي ، والسكان الأصليون هم دون البشر ، ويقول : « لقد صفينا حضارتهم فيما منعنا عنهم حضارتنا » ،

ومن الحكم الفرنسي للجزائر العربية أنتقل إلى الحكم العربي الإسلامي في إسبانيا :

(٢٢) جان بول سارتر ، (عارنا في الجزائر) ص ٢٩ ، وص ٦١ ، دار الآداب بيروت الطبعة الثانية ١٩٥٨ .

يقول الفيلسوف الفرنسي روجيه غارودي[٢٣] :

إنه تحرير حقاً ، وهذا ميشيل السوري يعيد إلى الأذهان صنوف الاضطهاد التي كان البيزنطيون يمارسونها ، حيث أن الله المنتقم قد اطلع على خبث وأذى الرومانيين الذين كانوا حيثما استتب لهم السيطرة ينهبون بوحشية كنائسنا وأديرتنا ، وينكلون بنا بلا شفقة ، فقد بعث من الجنوب بأبناء إسماعيل لكي يحررنا وينقذنا على أيديهم ، ويوضح غارودي هذا الفتح فيقول : لقد كان الفتح العربي نعمة لإسبانيا ، فقد أحدث ثورة اجتماعية عظيمة ، وقضى على جزء كبير من الآلام التي كانت البلاد تنوء تحت وطأتها منذ قرون .. كان العرب يحكمون وفق الطريقة الآتية :

لقد تم تخفيض الضرائب إلى أبعد حد ، وصادر العرب أراضي الأغنياء ، التي كانت مقسمة إلى مقاطعات إقطاعية مترامية الأطراف ، وكانت تزرع بواسطة مزارعين أقنان أو أرقاء ساخطين ، ووزعوها ـ أي العرب ـ بالتساوي على أولئك

(٢٣) روجيه غارودي ، (الإسلام في الغرب) مرجع سابق ص٢٢٢ .

الذين كانوا يعملون فيها وصار المالكون الجدد يزرعونها ويستغلونها بحماس تام ، ويحصلون منها على محصول أفضل وأوفر .. وجرى تحرير التجارة من القيود ، ومن الرسوم الكبيرة التي كانت تبهظها وتسحقها ، فازدهرت التجارة وتطورت كثيراً ..

وقد سمح القرآن للعبيد بأن يعتقوا أنفسهم بتعويض عادل ، وقد ساعد هذا في استخدام طاقات جديدة .. وكانت كل هذه الإجراءات تخلق حالة من الرفاهية العامة التي كانت سبباً للاستقبال الحسن الذي لقيه العرب في بداية السيطرة العربية .

من هذه المقارنة أقول : ليس من العدل أن تقول الكاتبة سيبقى المجتمع الإسلامي مجتمعاً عبودياً لقرون طويلة ، ولا يتراجع عنه إلا تحت ضغط الاستعمار في القرن العشرين [ص ١٨١] .

الغرانيق ـ الآيات الشيطانية في كتاب الحريم السياسي ص٤٤

الكاتبة .. تحدث القارئ الغربي في كتابها الحريم السياسي عن حكاية الغرانيق ، وكان مرجعها تاريخ الطبري أيضاً جزء ٢٢٦/٢ ، يتعلق بالآية ١٩ و ٢٠ من السورة ٥٣ ، حول ما كان شيطانياً وحذف ، وكان من الخلاصة البارعة (واط آيات شيطانية « محمد » في مكة جامعة أكسفورد طبعة ١٩٥٣) .

تقول : في حياة عمّه أبو طالب بذلوا ضغوطاً كثيرة على محمد ، بحيث أنّه نطق بآية كانت تشير إلى قوة هذه الربّات ، ولكن النبي تخلّى عن هذه الآية كآية شيطانية ومع أنّ اسمهن بقي في القرآن ، فإن الجزء الذي يشير لصفتهنّ الإلهية « الغرانيق العُلى » أي الطيور الكبيرة ، تبعاً لطبيعتهن السماوية ، سوف يُلغى ويحذف ، وسوف تكون القطيعة كاملة مع مكة .

ـ وحكاية الغرانيق طُرِحَتْ في **مجلة الناقد**(٢٤) عدد نيسان ١٩٩٤ ، للكاتب « علي حرب » يقول : ثمّة نقطة يشير إليها عنوان رواية سلمان رشدي ـ الآيات الشيطانية ـ إنه ينقض النبوة ، ويعمل على تلغيم الوحي ، ذلك أنّه إذا كان صحيحاً ، أنّ تلك الآيات الثلاث ، المتعلقة بقصة الغرانيق ، لم تكن وحياً ، بل وسوسة شيطانية ، فلا معنى لذلك سوى التشكيك في مصداقية الوحي ؛ ولقد انقسم الكتّاب ، بين مصدّق ومكذّب ، بعد إثارة هذه القضية ، ومن اللاّفت أنّ مفكراً كـ « حسن حنفي » يُعَدُّ قريباً من التيارات الإسلامية ، قد عَدَّ أنّ الآيات التي بنى عليها سلمان روايته ، ليست وحياً تماماً كما ذكر بعض المفسرين القدامى ، وقد فسرّ « حنفي » الأمر بالقول : إنّ النبي عندما استخدم هذه الآيات ، لم يكن يتصرف كنبي بل كزعيم سياسي ، ويضيف علي حرب : وهذا التأويل يلقي هو الآخر ظلالاً من الشكّ على مصداقية النبوة .. انتهى .

---

(٢٤) مجلة الناقد العدد سبعون نيسان ١٩٩٤ مقال للكاتب علي حرب تحت عنوان (حقول الألغام) .

- وإذا عدنا لتلك الآيات ، نجد أننا أمام آيات محكمات ، ليس فيها من جزء حذف ولا جزء بقي ، لأنها كاملة المعنى ، قال تعالى : ﴿ أَفَرَأَيْتُم اللاَّتَ وَالْعُزَّى وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَى أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الأُنْثَى ، تلك إذاً قِسْمَةٌ ضِيزَى ، إنْ هِيَ إلاّ أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤكُمْ مَا أَنزَلَ اللهُ بِهَا مِن سُلطَانٍ إن يَتَّبِعُونَ إلاَّ الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الأَنفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُم مِن رَبِّهِمُ الْهُدَى ﴾ [النجم : ١٩/٥٣ - ٢٣] .

وفي كتاب (**الإسلام في قفص الإتهام**) للدكتور « **شوقي أبو خليل** » **بحث كامل عن** «حكاية الغرانيق »[٢٦] ، يقول : المستشرق بروكلمان أورد في كتابه تاريخ الشعوب الإسلامية حكاية الغرانيق بقوله : « اعترف النبي في السنوات الأولى من بعثته ، بآلهة الكعبة الثلاث ، اللواتي كان مواطنوه يعتبرونها بنات الله ، وأشار إليهنّ في إحدى الآيات الموحاة بقوله : « تلك الغرانيق العلى وإن شفاعتهن ترتضى » ثم قوي شعور

---

(٢٦) الدكتور شوقي أبو خليل ، (الإسلام في قفص الاتهام) ، ص٨١ وما بعدها دار الفكر - دمشق الطبعة ١٩٨٢م .

النبي بالوحدانية فجاءت السورة الثالثة والخمسون وفيها إنكار لأن تكون الآلهة الثلاث بنات الله ، ويعقب الدكتور .. فالمستشرقون قبلوا حكاية الغرانيق ، إلاّ أنّ المؤرخ الإيطالي « غيتاني » أنكر قصة الغرانيق لتهافتها في الإسناد والحوادث ، ويدّعي الذين قبلوا هذه الحكاية : أنّ النبي لمّا رأى تجنب قريش إيّاه وإيذاءهم لأصحابه جلس يوماً قرب الكعبة فقرأ سورة النجم حتى وصل ﴿ أَفَرَأَيْتُم اللاَّتَ وَالْعُزَّى وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَى ﴾ ثم قرأ (تلك الغرانيق العلى وأنّ شفاعتهن لترتجى) وسجد القوم حتى الوليد بن مغيرة وأعلنت قريش رضاها ، وبلغ ذلك مسامع المسلمين في أرض الحبشة فخرجوا راجعين ، وتضيف بعض كتب التاريخ والطبقات : أنّ النبي ارتدّ عن ذكر آلهة قريش بالخير ، لأنه حين عرض على جبريل في المساء سورة النجم وفيها مسألة الغرانيق ، قال له جبريل : أوجئتك بهاتين الكلمتين ؟ فأجاب النبي : قلت على الله ما لم يقل ، فأوحى الله : ﴿ وَإِن كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَينَا غَيْرَهُ وَإِذاً لاَتَّخَذُوكَ خَلِيلاً وَلَولا أن ثَبَّتنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِم شَيْئاً قَلِيلاً ﴾ [الإسراء : ٧٣/١٧] .

أولاً : فعبارة ﴿ إذاً لاَتخذوكَ خَلِيلاً ﴾ تؤكدّ أنّ الكافرين لم ينجحوا في مسعاهم .

وعبارة ﴿ لَولا أن ثَبَّتنَاكَ ﴾ فيها تثبيت النبي على عدم مداهنة قريش مطلقاً ، فقريش طلبت المداهنة ، ولكن الرسول لم يستجب ..

ثانياً : حكاية الغرانيق مرفوضة ، استناداً إلى القرآن ، قال تعالى : ﴿ وَلَو تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأَقَاوِيلِ لأَخَذْنَا مِنْهُ باليَمِينِ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴾ [الحاقة : ٦٩/٤٤ ـ ٤٦] . وقوله تعالى : ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوى ، إنْ هُوَ إلاَّ وَحْيٌ يُوحَى ﴾ [النجم : ٥٣/٣ـ٤] .

ثالثاً : حكاية الغرانيق مرفوضة استناداً إلى السنّة .

فالنبي لم يحترم الأصنام في الجاهلية ، إذ لم يعرف عنه أن تقرّب لصنم ، بل قال : بُغضَ إليّ الأوثان والشعر .

وقد سئل ابن خزيمة عن هذه الحكاية فقال : « إنها من وضع الزنادقة » .

وقال البيهقي : هذه القصة غير ثابتة من جهة النقل .

وفي رواية البخاري : « لم يرد ذكر الغرانيق » .

كما ورد في تفسير ابن كثير أنّ حديث الغرانيق مرسل ، والحديث المرسل سقط منه الصحابي وهذا سبب لضعفه .

ومما يضعف الرواية ويؤكّد أنّها موضوعة ، **اختلاف النص :**

فنهم من أورد (تلك الغرانيق العلى وأن شفاعتهن لترتجى ، ووردت (ترتضى) و (ترتجى) دون اللاّم .

وفي كتاب (الإسلام بين الإنصاف والجحود) **قول الإمام ابن حزم :**

« والحديث الذي فيه تلك الغرانيق العلى وأن شفاعتهن لترتجى فكذب بحّت لأنه لم يصح من طريق النقل ، ولا معنى للاشتغال به إذ وضع الكذب لا يعجز عنه أحد » .

وقد رفض **صاحب الإبريز** أحمد بن مبارك ، حكاية

الغرانيق كليّة ، وأورد : فقد رفضها عيّاض وابن عربي لضعف نقلتها ، واضطراب روايتها وانقطاع إسنادها ويقول : قد تكون قريش قد اختلقت حادثة الغرانيق ، وروّجها المنافقون ، ليرجع المهاجرون من الحبشة ، ودليل رغبتها في عودة المهاجرين أن وفدها إلى النجاشي طلب منه رد هؤلاء إلى قومهم ..

رابعاً : حكاية الغرانيق مرفوضة استناداً إلى اللغة العربية .

يقول الشيخ محمد عبده عن حكاية الغرانيق : إن العرب لم يصفوا آلهتهم بالغرانيق قطعاً ، لم يأت لهم في نظم ولا في خُطب ، ولم يكن ذلك جارياً على ألسنتهم ، ولم يستعمل الغرنوق والغرنيق إلا لاستعماله الحقيقي ، بكونه طائراً مائياً أسود أو أبيض ، واسمه مالك الحزين .

خامساً : وحكاية الغرانيق مرفوضة استناداً إلى التاريخ .

رد الدكتور عمر فروخ على إيراد بروكلمان لهذه الحكاية فقال : وأمسك المبشرون وبعض المستشرقين بهذه الرواية وزعموا أنّ الرسول إنما فعل ذلك لّما قاومه مشركو مكة ، فأحب أن

يتقرب منهم ، ويضيف د .فروخ : ولقد وجدت أنّ أحسن رد ، على هذه الفرية ، ما ذكره العالم الهندي مولانا محمد علي قال : إنّ هذه الرواية وردت عند الواقدي ، وعند الطبري ، ومع ذلك فإنها لا ظلّ لها من الحقيقة ، فإنّ كل عمل من أعمال رسول الله مناقض لمثل هذا الاتجاه ، أضف إلى ذلك أنّ الواقدي معروف بسرد الإسرائيليات وبسرد الخرافات ، وكذلك الطبري معروف بالجمع الكثير ، وباستقصاء الروايات مهما كان حظّها من الصحة ، على أننا لو رجعنا إلى رواية (محمد بن إسحاق) أو إلى « صحيح البخاري » وهو الذي لم يغادر من حياة الرسول شيئاً إلا ذكره ، لم نر لقصة الغرانيق أثراً ، وابن إسحاق جاء قبل الواقدي بأربعين سنة ، وقبل الطبري بنحو مئة وخمسين سنة أو تزيد ، أما البخاري كان معاصراً للواقدي ومع ذلك لم يذكر هذه القصة ، وختاماً لكل ما سبق :

القرآن الكريم بين أيدينا ، سأل الناس النبي ﷺ عن ربّه فأوحى الله الآية الكريمة ﴿ قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ ، اللهُ الصَّمَدُ ، لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ، وَلَم يَكُن لَهُ كُفُواً أَحَدٌ ﴾ [الإخلاص : ١/١١٢ ـ ٤] .

جاءت قريش إلى النبي ﷺ وطلبوا منه أن يكفَّ عن شتم آلهتهم وأن لا يذكرها بسوء ، فيعطونه المال ليصبح أغنى رجل في مكة ، ويزوجونه ما أراد من النساء فقالوا : فإن لم تفعل فاعبد آلهتنا سنة ، فأنزل الله الآية الكريمة :

﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ لاَ أَعبُدُ مَا تَعْبُدُونَ وَلاَ أَنتُم عَابدُونَ مَا أَعبُدُ ولاَ أَنَا عَابِدٌ مَا عَبدتُّم وَلا أَنتُم عَابِدُونَ مَا أَعبُدُ لَكُمْ دِينكُم وَلِيَ دِينِ ﴾ [الكافرون : ١٠٩/١ ـ ٦] .

والآية : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبرَاهِيمُ رَبِّ اجعَل هَذَا الْبَلَدَ آمِناً وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَعبدَ الأَصنَامَ ﴾ [إبراهيم : ١٤/٣٥] .

والآية : ﴿ وَإِبرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَومِهِ اعْبُدُوا اللهَ واتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِن كُنتُم تَعْلَمُونَ ، إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ أَوثَاناً وتَخْلُقُونَ إِفْكاً ﴾ [العنكبوت : ٢٩/١٦ ـ ١٧] .

الحريم السياسي ونظرية الدكتور طه حسين « في الشعر الجاهلي »

ألفاظ المتصوفة : تقول الكاتبة ص١١٧ ، إن البحث الدائم عن الله كان عند الحلاج ، هو بتجاوز الحجاب الذي يحجب وعينا .. « تضل المخلوقات في ليل مظلم فيك (الله) باحثة ولا تتبصر سوى الأوهام ، وعند الصوفيين مقابل الحجاب هو الكشف » ، وتضيف : « الفرد المُنتَقص هو المُحَجَب » ، والمغالطة واضحة في كلام الكاتبة فالمقصود عند المتصوفة ، الكشف الفكري والوجداني ، لا علاقة له بالكشف عن أجزاء من الجسم ..

نظرية طه حسين :

واستشهدت الكاتبة أيضاً بنظرية د. طه حسين حول الشعر الجاهلي فقالت : ويطرح طه حسين مسألة صحة إحدى أعمدة المعرفة العربية (الشعر الجاهلي) الذي استعمل على نطاق

واسع كمرجع من أجل قواعد اللغة ومفرداتها من قبل مفسري القرآن ، **إنه قدّم أطروحة ثورية** : هي أن هذا الشعر الذي هو مفتاح معرفتنا للأدب المقدس وبخاصة القرآن ، هو تصنيع خالص وبسيط ، ويضيف ـ أي طه حسين ـ: إذا كان الشعر والأنساب موضوعاً للتسويق ، فإنه يمكن تصور ما كانت عليه منازعات تفسير نصوص السُّلطة (القرآن والحديث) كانت هيئة العلماء متناحرة جداً تخترقها نزاعات ومصالح ولم يكن النزاع العرقي أقلّها .. وهنا نجد أفضل رد في كتاب (العصر الجاهلي) للدكتور شوقي ضيف[٣١] ص١٧٥ ، يقول : عمّا أورده الدكتور طه حسين في كتابه الخامس عن شعراء مضر ، ينبغي أن يحكّم في شعر مضر مقياساً مركباً من خصائص فنية ، يشترك فيها طائفة من الشعراء ، بحيث يكوّنون مدرسة كمدرسة « أوس بن حجر » التي تتألف منه ومن زهير وابنه كعب والحطيئة ، فإنّ لهذه المدرسة من الخصائص الفنية المشتركة ، ما يؤكد صحة شعرها وسلامته من الوضع والانتحال .

---

(٣١) الدكتور شوقي ضيف ، تاريخ الأدب العصر ، العصر الجاهلي ١٧٥/٥ دار المعارف بمصر ١٩٦٠ .

ويعلق الدكتور شوقي ضيف قائلاً : وكأن طه حسين بذلك يهدم شكوكه الواسعة في الشعر الجاهلي ، ويضيف د. شوقي قائلاً : والحق أن الشعر الجاهلي فيه موضوع كثير ، غير أن **ذلك لم يكن غائباً عن القدماء** ، فقد عرضوه على نقد شديد ، داخلي وخارجي ، ومعنى ذلك أنهم أحاطوه بسياج مُحْكَم من التحري والتثبت ، فكان ينبغي أن لا يبالغ المحدثون ، أمثال مرجليوث وطه حسين في الشكّ مبالغة تنتهي إلى رفضه .

ـ وأضيف إلى ما سبق :

سوف يشهد طه حسين أن استخفافه بالأدب والتاريخ ، والاستهزاء بأقوال السلف انتقل إلى الطلبة ، فساروا على نهجه بالسطو على الحضارة الغربية ، ورفض القديم ، فأحسّ الدكتور بالخطر ، وبدأ ينشر في جريدة الجهاد مقالات ، محصّلها رجوعاً صريحاً عن ادعائه الأول ، ومما قاله : « الذين يظنون أن الحضارة الحديثة حملت إلى عقولنا خيراً خالصاً يخطئون ، فقد حملت الحضارة الحديثة إلى عقولنا شرّاً غير قليل ، فكانت الحضارة الحديثة مصدر جمود وجهل ، كما كان التعصب للقديم

مصدر جمود وجهل أيضاً ، وليس التجديد في إماتة القديم ، وإنما التجديد في إحياء القديم وأخذ ما يصلحُ منه للبقاء » .

وفي كتـــاب المتنبي السفر الأول للكاتب محمود محمد شاكر[٣٢] .

أورد من كتاب (أسرار الحماسة) ، لسيد بن علي المرصفيّ هذا القول :

صرفت قلبي كلّه إلى الشعر الجاهلي ، أحفظ المعلّقات العشر ، بدأت أجد في هذا الشعر شيئاً مبايناً مباينة سافرة ، لما في الشعر العباسي كلّه ، بل إني افتقدت هذا الشيء في أكثر ما قرأت من الشعر الأُموي ، وكان غير معقول عندي أن يكون هذا الفرق الساطع مردود إلى فطرتي اللغوية ، إلا إذا كان الشعر الجاهلي نفسه يتلفع على هذا الفرق المتوهج كامناً في ثنايـاه ؛ وجدت ترجيعاً خفيفاً غامضاً كأنه حفيف نسيم ، تسمع حسّه وهو يتخلل أعواد نبات عميم متكاثف ، أو رنين صوت شجيّ

(٣٢) محمود محمد شاكر كتاب المتنبي السفر الأول .

ينتهي إليك من بعيد في سكون ليل داجٍ ، فما هو إلاّ التذوق المحض والإحساس المجرد ، وبهذا التذوق المتتابع الذي ألفتُه ، صار لكل شعر عندي مذاق وطعم وشذا ورائحة .

ثم أورد محمد شاكر أيضاً مقالة الأديب الكبير أحمد تيمور ، نشرت في مجلة إنكليزية (١٩٢٥) ، مجلة الجمعية الملكية الآسيوية ، تحت عنوان : المستشرق مرجليوث .. (نشأة الشعر العربي) .

إن المستشرق مرجليوث يشك في صحة الشعر الجاهلي ، وحسب رأيه : هو شعر إسلامي وضعه الرواة المسلمون ونسبوه إلى أهل الجاهلية ..

رأيت أعجمياً بارداً لا يستحي كعادته ، أنا بلاشك أعرف من الإنكليزية فوق ما يعرفه هذا الأعجم من العربية ، أضعافاً مضاعفة ، بل فوق ما يمكن أن يعرفه منها إلى أن يبلغ أرذل العمر ، وأستطيع أن أتلعب بنشأة الشعر الإنكليزي منذ (شوس) إلى يومنا هذا تلعباً هو أفضل في العقل من كل

ما يـدخل في طـاقتـه أن يكتبـه عن الشعر العربي ، ولكن ليس عندي من وقاحة التهجم وصفاقـة الوجـه مـا يسوّل لي أن أخـط حرفاً واحداً عن نشأة الشعر الإنكليزي ولكن صروف الـدهر التي ترفـع قـومـاً وتخفض آخرين قـد أنـزلت بنـا وبلغتنـا وبـأدبنـا ما يتيح لمثل هذا المسكين وأشباهـه أن يتكلموا في شعرنـا وأدبنـا وتاريخنا وديننا وأن يجدوا فينـا من يستمع إليهم ، ومن يختـارهم أعضاء في بعض مجامع اللغة العربية .

زواج النبي ﷺ من زينب

تقول الكاتبة ص١٢٩ ، بعض هذه الزيجات كان لزاماً لاعتبارات حربية ؛ تقوية شبكة التحالفات مع القبائل التي اعتنقت الإسلام مجدداً ، وفي بعضها الآخر كان الجمال الطبيعي للنساء هو العامل ، كانت زينب بنت جحش التي أوحى بالحجاب أثناء عرسها ابنة عمه ، فلم يكن هنالك إذن مصلحة حربية مبررة لهذا القران ، إضافة إلى ذلك كانت متزوجة من ابنه بالتبني - زيد - عندما أحبها النبي ، ويصف الطبري كغيره من المؤرخين هذه الصعقة التاريخية للحب .

نجد أن الكاتبة التي تطرح معاودة التفكير ومناقشة كل التراث ، حتى صحيح البخاري ، بينما هي **تأخذ تاريخ الطبري كحقيقة لا تحتاج لنقاش** فكما ورد بكتاب د. عمر الفروخ[٣٣] « المعروف عن الطبري ، الجمع الكثير واستقصاء الروايات مهما كان حظها من الصحة » ، إذا لم تكن المصلحة الحربية مبررة لهذا القران فهناك الأهم من المصلحة الحربية هناك التشريع الذي

(٣٣) د. شوقي أبو خليل (الإسلام في قفص الاتهام) ، مرجع سابق .

سيستمر في حياة المسلمين .. الانقلاب الجذري في العلاقات الأُسَريَّة بعد الإسلام ، وفي هذه المسألة لا داعي للعودة لأي مؤرخ لأن الآية الكريمة تصرّح وتوضح قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَراً زَوَّجْنَاكَهَا لِكَي لاَ يَكُونَ عَلَى الْمُؤمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدعِيَائِهِم إِذَا قَضَوا مِنْهُنَّ وَطَراً وَكَانَ أَمْرُ اللهِ مَفْعُولاً ﴾ [الأحزاب : ٣٧/٣٣] .

والكاتبة عادت في ص ٢٠٩ لتقول : كان النبي ﷺ **حسب العادات الجاهلية يقيم علاقة شبه بيولوجية بين الابن المتبني ووالده** ، وعندما طلق زيدٌ زينبَ وتزوجت هذه من النبي فإن الكثيرين من سكان المدينة حسبوا أن هذا الزواج محرّم ، وهذا ما يوضح لماذا أخذ النبي على عاتقه **دعوة كل الجماعة كما يروي أنس بن مالك** الصحابي ، فإن السبب في كون أغلبية قوانين الأحوال الشخصية في البلدان الإسلامية لا تعترف بالتبني إنما تعود إلى الآيات التي أوصى بها بمناسبة طلاق زينب ، وكجواب على الشائعات التي انتشرت في المدينة ، لا يمكن للطفل المتبنى أن يرث كولد بيولوجي ..

الحريم السياسي وعمر بن الخطاب ص١٧٢

تقول الكاتبة : كان عمر صارماً بكل ما يتعلق بعبادة الله ، تجنب رواية الحديث ، كان يرتعب ألاّ يكون دقيقاً .

ولكن الكاتبة تعود لتناقض نفسها ، وتتحدث كما يتحدث بعض علماء الغرب الذين يرون في النبي المصلح الاجتماعي ... فتقول : كان عمر معجباً بدون حدود في النبي وبإطروحاته للتغيير ، وخلق مجتمع عربي ، كان على استعداد للمضي بعيداً مع النبي واتّباعه في رغيبته ، بتغيير المجتمع بصورة عامة ، ولكن إلى الحد الذي لا يصل لتغيير العلاقات بين الجنسين ، مما قبل الإسلام بين الرجال والنساء .

أقول يا عزيزتي الكاتبة : عمر الذي ولد ولادة جديدة بعد الإسلام مؤمن بالله والنبي مبلغ رسالته إلى البشرية كافة ، وليس النبي رجل إصلاح في مجتمع عربي . وعمر الكبير الإيمان ، مؤمن بآيات الله دون استثناء ، فالله يقول : ﴿ فَلا وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ

حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً ﴾ [النساء : ٦٥/٤] ، وقال تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلاَ مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللهُ وَرَسُولُهُ أَمراً أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِن أَمرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَد ضَلَّ ضَلالاً مُبِيناً ﴾ [الأحزاب : ٣٦/٣٣] ، فعلى ضوء هذه الآيات نجد أن الكاتبة تتهم عمر أنّه ضلّ ضلالاً مبيناً ، وأنه عصىٰ الله والنبي فيما يتعلق بالعلاقات بين الجنسين ، ومكانة المرأة التي تغيرت جذريّاً عن عهد الجاهلية باعتراف الكاتبة ذاتها ، التي قالت : « لم تعد النساء تورث كما تورث الجِمَال .. » ، ثم هل يتصور مؤمن أن يكون عمر مثال التقوى والعدل كما أوردت الكاتبة نفسها ، أن يكون هذا الفاروق راغباً في بقاء المرأة المسلمة على ما كانت عليه في الجاهلية !؟ إن هذا بلا شك منتهى المغالطة .

وتقول الكاتبة عن عمر : وصف المؤرخون طبعه النزق مع النساء ، ولم يكن مصادفة أن يصبح الناطق الرسمي للمقاومة الذكورية من مشروع المساواة النبوي ، الكاتبة تتحدث عن آيات الله وكأنها اقتراحات في مجلس من مجالس الأنظمة

البشرية . وتعطي الأدلة عن عنف عمر مع النساء حسب رأيها ..

أولاً : زوجة عمر تعانده ، وتبرر سلوكها بسلوك زوجات النبي : ترفع الواحدة صوتها وتعبر بحريّة عن غضبها ، فأسرع عمر إلى ابنته (حفصة) مستنكراً ذلك ، ويقول لها : أتأمن إحداكنّ أن يغضب الله لغضب نبيّه فيهلكن ، لا تستكثري على رسول الله ، ولا تراجعيه ، واسأليني ما بدا لك .. ودفع به الحماس إلى الذهاب إلى نساء النبي الأخريات ، ليعظهن بالرقة تجاه الزوج المثالي ، إلى أن وصل (لأم سلمة) التي استنكرت تدخله .. أتساءل : أي عنف في كل ما سبق ؟ إن عمر رضي الله عنه ، خشي أن يغضب الله على زوجة تخاصم النبي في علاقة خاصة وعاطفية فتهلك ، فكيف إذن يخالف عمر النبي كما ادّعت الكاتبة ، في تشريعات من عند الله للمرأة والأسرة ونظامها الجديد ، على العكس ، يبدو عمر الأب الذي يوصي ابنته بما هو خير لها ، ويتحمل عبء ابنته عن زوجها النبي المثقل

بالمسؤوليات ، وكونه اتجه للأُخريات ، موقف فيه كل الرقة والحب والحرص على النبي حتى من أقرب الناس إليه .

والموقف الثاني الذي أوردته الكاتبة : أنّ عمر صرخ بعائشة وهي تتجول جانب الخنادق ، وقال لها : ماذا لو حصل هزيمة وأسر ؟!

موقفه أيضاً يدل على حرصه على سلامة زوجة النبي ﷺ .

والآن أورد مواقف لعمر مع المرأة :

١ ـ شكا الرجال من غلاء المهور ، فاجتهد عمر لتسهيل الزواج أن تخفض المهور لأدنى حدّ ، فخطب في الناس محدداً المهور ولكن امرأة اعترضت قائلة إن الله سبحانه يقول : ﴿ وَإِن أَرَدتُّمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحدَاهُنَّ قِنطَاراً فَلا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيئاً ﴾ [النساء : ٤/٢٠] . فقال عمر كلمته المشهورة : « امرأة أصابت وأخطأ عمر »[٣٧] .

---

(٣٧) [النساء : ٤/٢٠ ـ ٢١] حكاية تحديد عمر للمهور واحتجاج المرأة=

٢ ـ شكا رجل لعمر أنه يرغب بطلاق امرأته لأنه لا يحبها فأجابه عمر بغضب : « ويحك أبالحب وحده تبنى البيوت ؟ أين الترحم ؟ وأين الذمم ؟ ، أو ويحك ! أو لم تبنى البيوت إلا على الحب ؟ فأين الرعاية ؟ وأين التذمم ؟ » .[٣٨]

٣ ـ موقف لعمر يظهر رحمته بالنساء العبدات ، فالإسلام قيّد ملكية العبدة فحرّم بيعها .

يقول عمر منكراً على من كانوا يحاولون بيع الجواري :

« أبعد أن اختطلت لحومكم بلحومهن ودماؤكم بدمائهن تريدون بيعهن »[٣٩] .

٤ ـ عمر يتفقد الناس بالليل ، يسمع فتاة ترفض غش اللبن وتقول لأمها : « إن كان عمر لا يرانا فالله يرانا » يطلب

= واستشهادها بالآية السابقة ، وردت في تفسير الرازي المجلد الخامس جـ١٥/١٠ .

وأيضاً الشيخ السيد سابق فقه السنة جـ١٥٨/٢ ، ذكر القصة بعبارة قريبة من ذلك .

(٣٨) د . على عبد الواحد وافي (المرأة في الإسلام) ص ٦٥ ، مرجع سابق .

(٣٩) د . عبد الواحد وافي (المرأة في الإسلام) ، ص ١٦٩ .

من أحد أبنائه أن يتزوج من فتاة تخشى الله ، دون الاهتمام بنسبها أو مالها أو جمالها .[٤٠]

■ ـ يعيد ابن حزم إلى الأذهان بأن المالكيّين يسمحون للمرأة بأن تضطلع[٤١] بمسؤوليات الوصاية والإدارة ، وأن الحنفيين يذهبون إلى أنّ بإمكان المرأة أن تتولّى وظيفة من وظائف الحكم وأخيراً يستشهد بالرواية القائلة بأن عمر قد عيّن امرأة من قبيلته هي الشَّفَّاء كناظرة أو مراقبة للأسواق (محتسبة) .

(٤٠) الأستاذ علي الطنطاوي ، رجال من التاريخ ص٥٩/المكتبة الأموية دمشق ١٩٦٨م .

(٤١) روجيه غارودي ، الإسلام في الغرب ص (٧٨ وما بعدها) مرجع سابق .

الحريم السياسي وهند بنت عتبة زوجة أبي سفيان

تحدثت الكاتبة كيف أقبلت النساء بعد فتح مكة بقيادة هند لمبايعة الرسول ، وأنه ليدهشني إعجاب الكاتبة بعجرفة هند وصلفها ، وهي تتكلم مع النبيّ ، فموقفها يشبه موقف الأعراب الذين وصفهم القرآن لا تقولوا آمنا بل أسلمنا ، هذا لو صدق المؤرخون لأنّ أعداء بني أميّة ابتكروا الكثير من الشبهات السياسية .

الكاتبة تقول : إن بيعة هند التي نقلها المؤرخون كلمة فكلمة يبقى عملاً رئيساً من الدعاية والجرأة السياسية من جانب امرأة مكرهة على الخضوع ولكنها لم تتنازل مطلقاً عن حقها في التعبير ، فعندما طلب إليها النبي أن تحلف بأن لا ترتكب الزنى مطلقاً ، أجابت هند إن المرأة الحرّة لا ترتكب الزنى أبداً ، وتضيف الكاتبة : وقد نفترض أن الرسول ألقى نظرة مداعبة

نحو عمر ، لأنه يعرف مغامرات هند مع عمر قبل الإسلام [ص ١٤٤] .

ـ إذن فهي كاذبة وما وجه الإعجاب بامرأة كاذبة وقحة .. وفي ص (٢٣٠) تعود الكاتبة للحديث عن هند .

كان يمكن انتظار اليوم الرابع من فتح مكة وحضور مبايعة النساء وتحت قيادة هند ، تجاوزت عمر ، وتقدمت نحو النبي : إننا نريد أن نبايعك أنت ، معك نريد أن نبرم ميثاقنا . وعندما وصل النبي إلى الجزء من القسم المخصص للنساء لم تتمكن هند من الْتَمَاسُك على الرغم من احتفالية المناسبة : تفرض علينا التزامات لم تفرضها على الرجال ولكننا نقبلها ، لن نكون أبداً غير وفيات .

ـ وجوابي : إن امرأة تخاطب النبي بهذا الافتراء لا يمكن أن تكون مؤمنة ، فليس النبي الذي يفرض بل الله سبحانه وتعالى .

الآية ﴿ يَا أَيُّها النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَى

أَنْ لا يُشْرِكْنَ بِاللهِ شَيْئَاً ولاَ يَسْرِقْنَ وَلا يَزْنِيْنَ وَلاَ يَقْتُلْنَ أولاَدَهنَّ وَلاَ يَأْتِيَنَ بِبُهتَانٍ يَفْتَرِينَه بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وأَرْجُلِهِنَّ وَلا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ واسْتَغْفِر لَهُنَّ الله إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [الممتحنة : ١٢/٦] .

والسؤال ما الذي فرضه الله على النساء لم يفرضه على الرجال ؟ توحيد الله أساس الإيمان ، السرقة ؟ ﴿ السَّارِقُ والسَّارِقَةُ ﴾ [المائدة : ٣٨/٥] ﴿ الزَّانِيَةُ والزَّاني ﴾ [النور : ١/٢٤] ، قتل الأولاد آية أخرى ﴿ لاَ تَقْتُلوا أولادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ ﴾ [الإسراء : ٣١/١٧] . ولكن الكاتبة تتابع معجبة بوقاحة هند ، لقد طلب النبي إلى النساء أن يقسمن بأن لا يقتلن أطفالهن ، ووجدت هند أنه قد أفرط وهو الرئيس الحربي أصلاً للمعارك التي سالت بها الدماء يطلب مثل هذا الشيء من النساء اللواتي يعطين الحياة ، فأجابت هند : لقد ولدنا للحياة أولادنا وربيناهم ولكنك أنت الذي قتلتهم في يوم بدر .

وتعقب الكاتبة : نساء قريش معتبرات كمجموعة اجتماعية

كالرجال للمبايعة ، بل كان بإمكانهن اتخاذ موقف انتقادي بكل حريّة تجاه الإسلام .

ـ إذن وقاحة هند وجاهليتها تسميها الكاتبة موقف انتقادي من الإسلام أذكّر الكاتبة أن النبي جاء إلى مجتمع تدفن فيه الأنثى حيّة ﴿وَإِذَا الْمَوْؤُدَةُ سُئِلَتْ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ﴾ [التكوير : ٩/٨١] .

والكاتبة أوردت في كتابها (الإسلام والديمقراطية)(٤٧) ص١٥٦ .. كيف كان يتم وأد البنات تقول : حسب الطبري في قبيلة ربيعة ومضر يفرض الرجل الشروط على امرأته ، تستطيع أن يحتفظ بفتاة حية ، ولكن عليه بالضرورة أن يقتل الثانية ، فعندما تولد تلك التي يجب أن تدفن حيّة يغادر الرجل المضارب مهدداً امرأته بأنه لن يلمسها أبداً إذا عاد ولم تكن الفتاة قد دُفِنَتْ . تصنع المرأة حفرة في التربة ، وتبعث في طلب الأخريات اللواتي يأتين فيجتمعن لديها ويساعدنها ، وما إن تلمح

(٤٧) د . فاطمة المرنيسي (الخوف من الحداثة) ص١٦٥ دار الجندي دمشق ١٩٩٤ ، ترجمة : د . محمد الديّات .

المرأة زوجها في الأفق حتى تضع الطفلة في الحفرة ، وتغطيها بالتراب حتى تتغطَى تماماً .

ـ نستطيع أن نفهم الآن لماذا قال النبي للنساء لا تقتلن أطفالكن . وجاء النبي إلى مجتمع تسيل فيه الدماء لأتفه الأسباب ، حرب داحس والغبراء استمرت أربعين عاماً بسبب سباق بين فرسين .

نبيٌ اُضطّهِدَ وجماعته أشدّ الاضطهاد ، واضطّر للهجرة ، وجاءت إليه الجموع الكبيرة في بدر لسحق الفئة المؤمنة ، فدعا ربه فأنزل الله ملائكته لدعمه .

﴿ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللهِ ﴾ [البقرة : ٢٤٩/٢] .

والكاتبة قالت في موضع آخر : النبي بصفته مخطط استراتيجي كان يتصرف بحذر شديد ، كان يريد أن يحارب دون أن يفقد الناس حياتهم ، وقالت : كانت الحرب والوصول للغنية يمارسها المكيون واحدة من مصادر الدخول الأساسيّة

مارسها محمد ﷺ واضعاً إيّاها بخدمة مشروع تجاوز الغزوة التقليديّة .. وأضيف لقد تجنب النبي إسالة الدماء في حفر الخندق وفي صلح الحديبية ، والنساء لا تعطي الحياة بل الله سبحانه يعطي الحياة وتحت عنوان (العفو عند المقدرة) يقول العلامة محمد الخضري(٤٩) : وأما هند بنت عتبة فاختفت ثم أسلمت ، وجاءت إلى رسول الله فرحب بها وقالت له : والله يا رسول الله ما كان على ظهر الأرض أهل خباء أحب إليّ أن يذلوا من أهل خبائك ، ثم ما أصبح اليوم أهل خباء أحبّ إليّ أن يُعَزّوا من أهل خبائك .. هكذا تختلف الروايات ..

---

(٤٩) محمد الخضري ـ نور اليقين في سيرة سيد المرسلين ص ٢٤٣ ومابعدها دار الخير دمشق ١٩٨٨ .

القسم الثاني

الجوانب المضيئة في كتاب « الحريم السياسي »

المقدمة :

وحتى لا أكون من الذين ينظرون إلى نصف الكأس الفارغ ، ولا ينظرون إلى نصفه الملآن سأكتب عن الجانب الآخر من كتاب الحريم السياسي ، فالكاتبة أبرزت جوانب مضيئة من مسيرة الإسلام ، كما أبرزت الكثير من مضامينه ، وفيما يلي أقدم هذه الفقرات وسأختار لكل منها العنوان المناسب .

الإسلام والسيادة :

أوضحت الكاتبة هذا الترابط بين الإسلام والسيادة : كان العرب ينظرون لليهود والمسيحية باحترام كجماعات حصلت على معنى للهويّة ، وشعوراً بالإنتماء إلى حضارة أعلى ، من أجل هذا ، يوجد في القرآن مثل ذلك الإصرار ، على واقعة أنّ الكتاب الموحى به عربيّ : ﴿ كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرآناً عَرَبِيّاً لِقَومٍ يَعْلَمُونَ ﴾ [فصلت : ٤١/٣] ، يعبر تماماً عن هذا الدور

للإسلام ، كجواب على أزمة قوميّة ، أزمة الثقة بالذات ، وأضيف : إن عبارة أزمة قومية ، تلخص حقائق عديدة ، حال العرب قبل الإسلام التمزق القبلي ، الفراغ الروحي والفكري .

مفهوم الجامع :

توضح الكاتبة مفهوم الجامع فتقول : الإسلام توجّه إلى الناس كافة لأن الجامع ، جامع محمد ﷺ خلافاً للأديان الأخرى ، ليس بناء وإنشاء ، وإنما هو أفق ، فالجامع هو في كل مكان ، الأرض كلها أصبحت جامعي ، يتجه المسلم إلى مكة توضح الكاتبة هذا الإطار الإنساني الشامل لرسالة الإسلام ..

العبوديّة :

تميز الكاتبة بين الدين كمبدأ أو أحكام ، وبين الدين على أرض الواقع فتقول : الإسلام وضع مبدأ المساواة للمؤمنين كافة ، وضِعَ من قبل النبي ، ونُظم بالقرآن الذي أدان العبودية ، أما أن يكون المسلمون قد أطاعوا أوامر الله ونبيّه بخصوص العبوديّة فهي قضية أخرى .. وتقدم الكاتبة دراسة دقيقة عن موقف

الإسلام من العبودية ، فتقول : لم يلغ الإسلام العبوديّة بشكل مذهبي كما هو الحال أيضاً في الديانتين اليهودية والمسيحية ، ولكنه التزم بتخفيض المؤسسة ، وتخفيف مظاهرها القانونية والأخلاقية ، جعل من تحرير العبيد علامة تستحق الذكر ، عمل خير ، شجعت آيات كثيرة على تحرير العبيد كعمل من أعمال الإيمان والضمير ، وهو ما أتت به الآية ، قال تعالى : ﴿ لَيْسَ البِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلكِنَّ البِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللهِ واليَوْمِ الآخِرِ والْمَلائِكَةِ والكِتَابِ والنَّبِيِّينَ وآتى المَالَ عَلى حُبِّهِ ذَوِي القُرْبى واليَتَامَى والْمَسَاكينَ وابن السَّبيلِ والسَّائِلينَ وفي الرِّقابِ ﴾ [البقرة : ١٧٧/٢] وتوجد الفكرة نفسها في الآية ١٣ من السورة ٩٠ ، والآية ٦٠ من السورة ٩ ، والآية ٩٢ من السورة ٤ .

وتشير الكاتبة إلى الخطوات التي اتّبعها الإسلام لتحقيق تحرير العبيد عملياً : لقد أكدّ الإسلام فيما بعد جدارة العبد بصفته شخصاً بشرياً ليعمل على مستوى القواعد التي تمس بالعلاقات الاجتماعيّة ، ومن نوع جنسي ، وبخاصة تحريم بغاء

العبدات ، وليضع الإسلام حداً لهذا البغاء ، سوف يشجع المسلم لتزويج العبيد ولكن القرآن الأكثر بروزاً يبقى ذلك الذي يسمح بزواج الرجال والنساء الأحرار مع العبيد ، ويعطي النبي المثال بذاته ، بأن يحرّر أسيرة حرب ، قبل أن يتزوجها .

النبي يدافع عن سورية :

أُعلِم الرسول أنّه يوجد على حدود سوريّة تجمعات جنود رومان رغم مرضه ، أعطى الأمر للمسلمين للذهاب إلى سورية ، وسمّى أسامة بن زيد رئيس البعثة ، أخذ الجنود يتهامسون ، جعل من ابن عتيقة زعيماً ، وسمع الرسول : فقال إنه جدير بالقيادة [ص ١٨٠] .

مقاومة أصحاب المصالح لمشروع تحرير العبيد :

حتى في حياة النبي ، كانت المقاومة ضد المساواة عنيدة ، إن مطالبة العبيد بالمساواة ، عرّضت للخطر مصالح اقتصادية ضخمة ، إنّ الرق لم يكن يُغذّى إلا بمصدرين شرعيين : الولادة في العبودية ، والأسر في الحرب . وسيحاول الدين الجديد

التدخل في هذين المستويين ، ففيما يتعلق بالأَسْر ، كما في موقعة حُنين ، إن مسلماً لا يجوز أن يقع في حالة العبد من قبل مسلم آخر ؛ وعلى مستوى الولادة قلب الإسلام النظام بصورة نهائية ، إنّه يعلن أنّ الولد المتولد من قران بين رجل حرّ وامرأة عبدة هو ولد حرّ . قبل الإسلام كانوا يُعتبرون أرقاء ، فكان الرجال يجعلون من عبداتهم بغايا للحصول على عبيد ، وفي مجال العبودية وكنموذج عن تحرير العبيد تحدثت الكاتبة عن الصحابي أبو بكرة : خيّم النبي أمام الطائف ، وحاصر الحصن ثمانية عشر يوماً ، قُتِل من رجاله اثني عشر شخصاً ، الأمر الذي أزعجه .. أرسل النبي رسلاً يهتفون حول الحصن : بأن كل عبد يترك الحصن وينضم إلى جيش محمد ، سوف يكون حرّاً ، واستجاب عشرات العبيد إلى ندائه ، كان أبو بكرة من هؤلاء ، الإسلام أعطى هؤلاء هويّة « أنا أخوك في الدين » ، اكتشف أبو بكرة الإسلام والحريّة ، فيما بعد أصبح وجيهاً مجّسداً حلم محمد ﷺ كل الفقراء والوضعاء في العالم يمكنهم الوصول إلى السلطة والثروة (ص٦٩) الأسرة الإسلامية ـ تقول الكاتبة : إن العائلة

الإسلامية تظهر في أيامنا خليّة مقهورة ، بالنسبة للرجل بكونه متعدد الزوجات ، والحق في الطلاق . وتفند الكاتبة هذه النظرة فتقول : لكن الرجل الجاهلي كان عنده جنسيّة ضاغطة جداً بحيث أن القاعدتين الإسلاميتين **(العدة والأُبّوة)** تشكّلان تطبيقات ضخمة جداً ؛ في الجاهلية إعادة رسم الأبوّة حتى الجد علامة امتياز للأرستقراطية .

إن ما قدّمه الإسلام في موضوع الأبوة يمكن القول بشأنه ، **إنّه كان تجديداً** إحدى المؤسسات الثوريّة في معنى القطيعة مع الماضي [ص ٧٠] .

كانت العدّة هدفها إيجاد الوالد الطبيعي للطفل ، لإلحاقه به ، في الجاهلية كان إلحاق الولد بوالده مهملاً بالنسبة للنظام الأمومي ، أو بالنسبة لنساء أسيرات ، أو إماء ينتقلن من سيّد لآخر ، أو زواج المتعة .

الطلاق والتعدد :

الكاتبة تطرح هذين الموضوعين بتفهم نادر وثقة كبيرة ،

وتضع الطلاق والتعدد في الاتجاه الصحيح فتقول : ولوضع حد للتحلل والاختلاط الجنسي الذي كان يوجد في الجزيرة العربية قبل الإسلام ، ومن أجل مراقبة الأبوة ، أدان الإسلام كلّ علاقة جنسية خارج الزواج معتبراً إياها زنى ، وأعطى للرجال الحق بأن يكون لهم عدد من النساء ، وأن ينفصلوا عنهن بسهولة ، وإبدالهن بغيرهن شريطة أن يكون ذلك في نطاق الزواج الإسلامي [ص٧٨] ..

زوجات النبي :

لم تكن نساء النبي على ساح المعركة مجرد متفرجات ، ولكنهن يشاطرنه في اهتماماته الاستراتيجية ، كان يسمع نصائحهن التي تكون حاسمة أحياناً في مفاوضاته ، وأعطت مثالاً (يوم صلح الحديبية) .

الخلافة :

لو أن محمداً ﷺ بدلاً أن يقاومُ الضغوط التي مُورِسَتْ عليه لتعيين خليفة من عشيرته (علي مثلاً) لو أنه قبل هذا وأعمل

النظام القبلي ، لكان الإسلام منذ البداية ، أُرْبِكَ بقضية عائلية قبلية حسب تقاليد الجاهلية ، (ص٤٨) تدخل عمر بطريقة عاجلة بهرت الحضور ، فخشية من امتداد الصراع وتحولّه إلى صراع دموي ، قال لأبي بكر : امدد يدك وتلقى بيعتنا لأنك وجه قريش والمحترم فيها والأكثر جدارة ، وأجابه أبو بكر : كَلاّ أنت يجب أن تمدّيدك وتتلقى البيعة ، تدخلت النخبة وفاوضت ، وحسب الظروف لإنقاذ الأساسي [ص٥٣] .

الإسلام والديمقراطية :

مع وصول معاوية إلى السلطة ، لن يعتقد أحد بإسطورة اختيار أصولي نسميه اليوم ديمقراطي لرئيس الدولة الإسلامية وسيلجأ معاوية بكلّ بساطة ليسمي في حياته ابنه يزيد وريثه في السلطة ، وأقام أسس الدولة الاستبدادية ، والإسلام كان يريد تجنب الأرستقراطية القبلية ، ظاهرة الأسرة الحاكمة ، وتقول : إنّ مرور خمسة عشر قرناً لم تكف ، ليبدو معها المسلمون أنهم اتخذوا عدّتهم لحل هذه المسألة ، وهي كيف يحوّلون مبدأ المساواة بين كل المؤمنين مهما كان جنسهم وأصلهم الأثني أو

الاجتماعي إلى سياسة عمليّة تُعطي الجميع الحق بالمساهمة في تعيين رئيس الجماعة .

وتقول في ص ١٣٦ إنّ بساطة المساكن واختلاطها وقربها من الجامع يُضفي هذا البُعْد الديمقراطي على الجماعة الإسلامية ، الذي يجعلنا جميعاً نحلم بفقدان المسافة بين الرئيس وشعبه ، فإنّ الطريقة البسيطة للعيش عند النبي كانت بالنسبة للمحيطين به تهديداً ، لأنه لم يكن يؤمن إطلاقاً بفضائل التقسيم بين مكان خاص ومكان عام ، وتقول الكاتبة أيضاً : إن اختيار الرئيس السياسي العادل وعدم الخطأ في تفسير الشريعة المستخلصة في القرآن والسُّنَّة ، كانا المحورين اللذين حركا كلّ التاريخ الإسلامي ، أقلّه على المستوى الرسمي ، وهما يشكلان جوهر التطلعات والآمال ، لأولئك الذين من بين المعاصرين ، يطلبون الرجوع إليهما ، كوسيلة لتنظيم المشكلات السياسية والاقتصادية ، التي تمزق المجتمع الإسلامي الحديث .

الإسلام والحكم والسياسة :

لقد أصبحت جماعة المدينة ، الجماعة المسلمة الأُولى ،

وشكّلت بالنسبة للأجيال القادمة النموذج الواجب إتباعه ، والتجربة الواجب احتذاؤها لأنها كانت موجهة من قبل محمد ﷺ الرئيس السياسي العسكري ، والحكم في آن واحد ، إنّه مشروع يستوحي من الله ذاته فالله هو الذي يجيب بواسطة الآيات على أسئلة معتنقي الإسلام الجدد .

كان الإسلام هذا الوعد بالقوة ، بالوحدة وبالنصر من أجل شعب هامشي ممزق محتل ، والذي استنفذ طاقاته في حروبه الداخلية .

إن الإسلام المثالي ، الذي يدّعيه التاميون في أيامنا ، كحل للمسائل الاقتصادية وللهزائم الحربية ، يحفظ في الذاكرة هذا المسار الذي لا يُصدق ، لشاب من مكة أعلن وهو في سن الأربعين أنه نبي ، وحقّق قبل موته في اثنين وعشرين سنة من التبشير ـ المتقطع بالبعوث العسكرية ـ الأحلام التي كانت تبدو مستحيلة لمعاصريه ، وحدة العرب بموجب عقيدة ، وليس بالإنتماء إلى جد واحد . وبزوغهم على المسرح الدولي بصفتهم قوة عالمية .

اليهود :

كانت لهم مصلحة بتجميد الرسول لسببين : ليس لأنه قوّض مصدر تقديرهم الوصول إلى المقدس إلى السماء ، إلى النص الموحى به ، إلى الأنبياء فحسب ، بل إنه استعمل أنبياءهم الخاصين ومعرفتهم الخاصة لكي يتكون كقوة تسود العالم .. وتقول : كان الرسول على درجة من صفاء القلب ليعتقد أن الجماعة اليهودية لن ترى فيه غير حليف ، لأول وهلة ظهر أهل الكتاب كحلفاء أكثر منطقية ، وظن أنه سيحصل على دعم منهم ضد عدوهم المشترك ، ـ الوثنية ـ أخذت فيه المسيحية المظهر الرحيم المتفهم المتباعد للنجاشي الأسطوري في الحبشة ، كان اليهود بعكس ذلك كانوا كثيرين ومؤثرين في لمدينة ، وقد حاربوه بضراوة ، فأعلن عليهم الحرب الشاملة .

الأحاديث النبوية

تقول الكاتبة في ص ١٩ ـ ٢٠ : سوف يلاحظ عبر حالة البخاري أحد المؤسسين في القرن التاسع لعلم الإسناد ، كيف إن المسلمين طوّروا هذا العلم من الكشف للأحاديث التي تنتمي إلى تقنية المقابلة ، والعمل على الطبيعة (لكشف غيرة وحسد علماء الانتروبولوجيا في نهاية القرن التاسع عشر) ، وذلك ما يتيح لنا أن نلاحظ بأن العهد المعاصر قلّما يشكل استثناء ، عندما يتعلق بالتنكر للامتيازات والمصالح في سنة النبي الكريم إنّ التذكّر وبخاصة الانزلاق في الماضي ، هو في أيامنا نشاط مراقب على مستوى عال خاصة بالنسبة للنساء المسلمات ، إنّ الماضي النائم يمكن أنْ يُنْعِشَ الحاضر ، وتلك هي فضيلة الذكرى .

وتناقش الكاتبة بعض الأحاديث التي تتعلق بالنساء :

١ ـ حديث : « **لم يفلح قوم ولّوا أمرهم امرأة** » (ص ١٤ ـ ١٦ ـ ١٧) . حسبما ذكره البخاري كان أبو بكرة هو الذي سمع

الرسول يقول : « لم يفلح قوم ولّوا أمرهم امرأة » فقد اعتبر أنه صحيح ، وبخاصة لم يسبق أن جرت مهاجمته ، وبصفتي امرأة مسلمة لا شيء يمنعني من القيام ببحث مزدوج تاريخي ومنهجي .. وحسب هذا الصحابي أنّ الرسول تلفظ بهذا الحديث عندما سمع أنّ الفرس سمّوا امرأة لتحكمهم ، وتعود الكاتبة إلى عمل ابن حجر » الكبير في شرح البخاري وإعطاء الضوء التاريخي لكل حديث : اختارت عائشة البصرة كمركز لقيادتها المقاومة المسلحة ، كان أبو بكرة أحد أعيانها ، لماذا استُجِر ليفتت ذكرياته ؟ كي يتذكر كلمات كان الرسول تلفظ بها منذ ٢٥ سنة سبقت ؟! تحالفت عائشة مع طلحة والزبير ، أما أبا بكرة فقد رفض اتخاذ موقف .. التقى بعائشة أعلمها أنّه ضد الفتنة وحسب ما روي قال لها : « إنّك أمُّنا ، ولك علينا حقوقاً ، لكنني سمعت الرسول يقول : « لن يفلح قوم ينيطون الملك بامرأة » سبق أن تحدثت الكاتبة عن الصحابي أبو بكرة الذي حرّره الإسلام ، ورفع من شأنه وشأن أبنائه ، يمكن أن نتصور بسهولة أنه كان عدواً لكل حرب أهلية يمكن أن تدمر

استقرار المجتمع الإسلامي .. كثير من الصحابة وسكان البصرة اختاروا الحياد بين عائشة وعليّ ، ولكن أبا بكرة وحده برّر حياده أنّ أحد الأطراف « امرأة » (ص٦٨ ـ ٦٩ ـ ٧٤ ـ ٧٥) ، وبالمقارنة مع أبي موسى الأشعريّ والي الكوفة من قبل عليّ ، رفض الانخراط في حرب أهلية ، عندما أمره الخليفة بتجنيد السكان ، رأى أنه ملزم بمشورة السكان الذين يحكمهم ، وفي لقاء المسجد ، أوضح للجميع ، بصفته صحابياً ، عن موقف النبي بالنسبة للحرب الأهليّة ، وروى أحاديث كثيرة تدين الفتنة ، وأحاديث ضد الحرب الأهلية ، ولم يكن بينها مسألة حول جنس القائد ، وتضيف : بسبب هذا الموقف لوالي الكوفة ، قد خُلِع من وظائفه وفقد ولايته ، وطُرِدَ من الكوفة ، يمكن التفكير أنّ وضع الآخرين الأقلّ شهرة كان حرجاً أكثر ، لهذا تذكرّ أبو بكرة حديثاً يأمر بعدم المشاركة بحرب إذا كانت امرأة ترأس جيشها .

وهناك أيضاً حديث آخر قاله أبو بكرة بمناسبة سياسية : « إن الحسن رجل المصالحات » .

وحسب شروط الحديث الصحيح : **فإنّ أبا بكرة تعرّض لعقوبة القذع** ، كان واحد بين أربعة شهود ، لحادثة زنى ، ولمّا أخذ الخليفة عمر يتأكد من شهادتهم تراجع أحدهم ، مما عرّضهم جميعاً لعقوبة القذع . [ص ٧٨] .

ـ **وفي هذا المجال أضيف إلى كل ما مرّ وأقول** : إنّ قضية مشاركة المرأة في الأمور السياسية على كل المستويات ، حتى الوصول للقيادة ، قضية كبيرة وهامة ، ولا يوجد في القرآن أو أحاديث الرسول القدسيّة ، أو حجة الوداع أي دليل لإبعاد المرأة عن الحياة السياسيّة ، ولا يمكن أن يكون مرجع قضية كبيرة وهامة كهذه ، إلى مجرد حديث تلفظ به النبي بمناسبة عابرة وهي تولي امرأة القيادة عند الفرس ، وكذلك نجد الاختلاف في النص : « لن يفلح قوم ولّوا أمرهم امرأة » ، و « لم يفلح قوم ولّوا أمرهم امرأة » ، « لن يفلح قوم ينيطون الملك بإمرأة » .

عائشة رضي الله عنها :

يرجع الفضل إلى الأستاذ الأديب سعيد الأفغاني لنشره نصيّن أساسيّين آخرين عن عائشة لم يوجدا حتى ذلك الحين

١٩٤٦م إلا تحت شكل مخطوطين غامضين وتقول : النتيجة التي توصل إليها الأستاذ الأفغاني : يجب بشكل مطلق منع النساء من العمل في السياسة ، فعائشة تُثْبِتُ أنّ المرأة لم تُخلق لتدس أنفها في السياسة .. وتعلق الكاتبة : والأفضل لكم أيّها القراء أن تتجاهلوا ما حصل بعدئذ في موقعة النهروان وموقعة صفين ، وفي كل المعارك الأخرى ، حيث أدرنا سلاحنا ضد بعضنا البعض (ص١٦ ، ص٧٢) .

وأبرزت الكاتبة قيادة عائشة رضي الله عنها لموقعة الجمل : اختارت عائشة البصرة كمركز لقيادتها ، تحالفت مع طلحة والزبير ، وكان يفترض أنّ كثيراً من المسلمين قد فكرّوا كعائشة ، لأن قسماً مهماً من مدينة البصرة استقبلها ، وقدّم لها الرجال والسلاح ، لقد أقامت قيادتها العامة في البصرة ، بعد أن طردت الوالي الذي يمثل عليّاً ، وأكملت مع حليفيها حملتها الإعلامية التفاوضية ، الإقناعية بلقاءات فرديّة ، أو في الجوامع ، واعظة الجمهور ، ومحرّضة لهم على دعمها ضد الخليفة عام ٣٦هـ/٦٥٦م .

حديث آخر تناقشه الكاتبة ـ تقول : في المدرسة الثانوية ، دروس التاريخ الديني تزخرف بالأحاديث ، والتي كان الأستاذ يتلوها ، وهو يدور أمامنا ، صفحات مختارة من البخاري ؛ كان يضعني إلى حد كبير في حالة غير مريحة . [ص٨٥] .

فالنبي قال : « **الكلب والحمار والمرأة** » تقطع الصلاة ، أذا مرّت أمام المؤمن فاصلة بينه وبين القبلة ، تقول الكاتبة : صُدِمْتُ جداً بهذا الحديث ولم أعيده ، مع أمل أن يمحى من ذاكرتي ، كنت أردّد : أنا التي أجد نفسي ذكيّة عاطفية مبدعة متحمسة ابنة ١٦ سنة ، لماذا قال الرسول هذا الحديث الذي يؤلمني علماً أنّ هذا لا يتناسب في شيء مع ما يروى عن حياة محمد ﷺ : إنّ محمداً لم يكن رئيس دولة فحسب ، بل كان أيضاً عاشقاً لعائشة .

وأضيف هنا ما ورد في كتاب (**رجال من التاريخ**)(٥٠) عن عائشة .. كانت كاملة الأُنوثة وكانت عالمة واسعة العلم تعلّم

(٥٠) الأستاذ علي الطنطاوي ـ رجال من التاريخ ص ٢١ مرجع سابق .

العلماء وتفتي المفتين ، وكانت بليغة بارعة البيان تبذّ الخطباء ، كانت لقوة شخصيتها زعيمة في كل شيء ، في العلم والمجتمع وفي السياسة وفي الحرب ، أما منزلتها في الإسلام فهي أعلى منازل التقديس ، عدّ الزركشي أربعين منقبة لعائشة لم تكن لغيرها . قالت مرّة لرسول الله : كيف حُبُّكَ لي ؟ قال : كعقدة الحبل ، كالعروة الوثقى ، فكانت تسأله مرّة بعد مرّة كيف العقدة ؟ فيقول الرسول : على حالها .

وأعود للكاتبة ، حيث تعاطفت جداً معها وأسفت أيضاً لهذا الحديث .

وتذكرت مباشرة أجواء الحج ، حيث يلتقي الرجال والنساء معاً في كل المناسك ، وتقول الكاتبة : لنفهم خطر هذا الحديث ، إنّ القِبلة هِي العمل على تحويل العالم مع مدينة عربية كمركز سطحي ، وإبعاد النساء عن القِبلة هو إذن إبعادهنّ **عن كل شيء من البُعْدِ المقدّس** ، والبعد الوطني الذي يعبّر عن الفضاء كميدان للمركزيّة الأثنية العربية والإسلاميّة .

مع أنّ الكاتبة أجادت في إبراز معنى القِبلة كرمز وامتزاج

البعد المقدس بالبعد الوطني ، ولكني أخشى ألاّ يكون أبو هريرة كان يقصد كل تلك الأبعاد التي فكرّت بها الكاتبة .

وتقدم لنا الكاتبة الدليل التاريخي ، فتقول : وحسب ابن مسروق ، أنه عندما ذُكِرَ الحديث أمام عائشة ردّت عليهم : تقارنوننا الآن بالحمير والكلاب ! والله لقد رأيت النبي وهو على أهبّة إقامة صلاته ، وكنت هنالك ممّددة على الفراش بينه وبين القِبلة ، ولكي لا أشرد ذهنه ، كنت أتحاشى أن أتحرك ، أضيف : هذا الجواب كاف لإلغاء الحديث .

الحديث الثالث : من صحيح البخاري : سوء الحظ في أشياء ثلاثة البيت المرأة الفرس ، وقيل لعائشة كما كتب الإمام الزركشي إنّ أبا هريرة قال هذا الحديث . فردّت عائشة : « إنّ أبا هريرة تلقّى دروسه حتماً بشكل سيء ، لقد دخل علينا في حين كان الرسول في وسط الجملة كان الرسول قد قال : « قاتل الله اليهود ، إنهم يقولون : ثلاثة أشياء تحمل سوء الحظ البيت المرأة الفرس » (ص٩٦) .

الخليفة عمر وأبو هريرة : تقول الكاتبة : إنّ أبا هريرة

كان موضوع هجوم من الصحابة ، إنّ عمر بن الخطاب أغضبه السُّهولة التي كان يطلق بها أبو هريرة الأحاديث ، ونقرأ في السيرة الشخصية التي ألّفها ابن حجر : إنّ عمر فكرّ يوماً بخصوص أبي هريرة وقال : لدينا الكثير من الأشياء التي يمكن قولها . ولكننا نخاف من قولها ، وهذا الرجل لا وازع لديه ، ص٩٩ (الإصابة جزء ٧/٤٤٠) .

تصحيحات عائشة لأحاديث النبيّ :

لقد تعوّد المؤمنون أن يأتوا إلى عائشة ليتأكدوا مما يسمعونه من أقوال ، واثقين من أحكامها ، **ليس بصفتها قريبة من النبي ، وإنما لإمكانياتها الخاصة** ، قال ابن عطاء : رأيت جماعات من أصحاب النبي ممن هم أكثر رفعة ، يطرحون عليه مسائل تتعلق بالفرائض ، كانت عائشة بين كل هؤلاء الأشخاص ، الشخص الذي كان عنده أكثر المعارف بالفقه والأكثر ثقافة ، وبمقارنتها بمن كان يحيط بالنبي ﷺ كان حكمها هو الأفضل ، وتوضح الكاتبة : على الرغم من نباهتها فإنّ تأثير أبي هريرة ربما تسرب في النصوص الدينيّة الأكثر احتراماً ،

ومن بينها صحيح البخاري ، الذي بحسب ما يبدو لم يعتقد دوماً أنّه ملزم لإدخال التصحيحات التي أوردتها عائشة ، وتقول :

الإمام الزركشي - لحسن الحظ - سجّل في كتابه كل اعتراضات عائشة ، وقد أعطيت هذا الكتاب عنوان مجموع التصحيحات التي قدمتها عائشة للشهود من الصحابة ، الذي بقي بشكل مخطوط حتى سنة ١٩٣٩م في المكتبة الظاهريّة في دمشق ، اكتشفه الأستاذ الأديب سعيد الأفغاني . وهو يفتّش عن سيرة عائشة .

الإمام الزركشي : أحد أكابر علماء المدرسة الشافعيّة في زمنه ، وهذا الكتاب أهداه إلى قاضي القضاة ، لأنه كما قال : إنّ النبي (ﷺ) اعترف بأهمية عائشة لدرجة قال : « خذوا جزءاً من دينكم عن هذه الحميراء » .

وعن البخاري تقول الكاتبة :

بدأ مجموعته بطلبه من الله العون وبالتأكيد على أنه وحده المعصوم من الخطأ ، وتطرح الكاتبة رأيها بإعادة التقصّي للحقائق ، فتقول : إنّ للشك بكل شيء وبخاصة الفقهاء

والأئمة ، تلك هي سنتنا ، ويتوجب أكثر من أي وقت نبشها من عصور النسيان التي استطاعت إخفاءها ، ولكن يجب أن نتحاشى السقوط في التعميات ، بأنّ الأئمة كافة كانوا وما زالوا معادين للنساء ، بدليل كتاب الإمام الزركشي .

في صحيح البخاري هناك عدد كبير من الأحاديث موضوعها منجّس للنسوي : كان أهل الجزيرة يعتبرون الجنس والمرأة الحائض كمصدر للقذارة والتدنيس ، وكقطب للقوى السلبيّة تعبّر عن **جوهر الجاهلية** وهي جوهر **المعتقدات اليهودية** ، **أدانها النبي** ﷺ ، كان النقاش حول النجاسة مسألة أساسيّة التي تتعلق بأركان الإسلام الصوم ، الصلاة ، قدّم الفقهاء الذين رجعوا لعائشة كحجّة بأن نقلها للأحاديث متوافقاً مع موقف النبي ﷺ ، الذي حاول بكلّ الوسائل أن يقاوم الأوهام الخرافية بأشكالها كافة ، تلك قضيّة تهم الأئمة والخلفاء ، معاوية مثلاً طلب إلى أمّ حبيبة زوجة النبي ﷺ ، يسألها : هل صلّى النبي ﷺ في الثياب التي يجامع فيها ؟ فقالت : نعم ، ويروي لنا النّسائي أنّ (أمّ ميمونة) زوجة النبي ﷺ قالت : كان

يحصل أن يتلو النبي ﷺ القرآن ورأسه موضوع على ركبة واحدة من بيننا ، والتي قد تكون في الحيض أو تحمل بساطاً وتفرشه في الجامع .

العلماء والفقهاء شعروا بخطر معاداة النساء المتجذّرة في البحر المتوسط العربي ، قبل وبعد النبي ﷺ ، فحاولوا الانتباه الشديد ، **لأنّ هذا الاتجاه سيؤدي للتنكّر للنبي** ﷺ ، لهذا سوف يضاعفون من احتياطاتهم ، وتنقيبهم ، ويفتشون حول الحياة الجنسيّة للنبي ﷺ بإعطائهم الكلام لنسائه ؛ المصدر الوحيد الممكن تصديقه في هذا الشأن .. لقد عملوا على تجميع التفاصيل حول حياته في الجامع ، كما في المنزل ، وسوف يكرّس ابن سعد فصلاً لمخطط بيت الرسول هام جداً ، من أجل توضيح هذا البعد المفتاح للإسلام والذي هو ثورة شاملة ، بالنسبة لتقاليد اليهود والمسيحية وتقاليد الجاهلية للعلاقة النسوية .. لكن سرعان ما أخذ الاتجاه المعادي للنساء يفرض نفسه بين الفقهاء ، وسوف نرى انبثاق هذا الخوف الخرافي من النسوي ، الذي كان الرسول قد أراد إزالته ، (ص ٩٠ ـ ٩١ ـ ٩٤ ـ ٩٥ ـ ٩٦ ـ ٩٧) .

أضيف إلى كل ماسبق أحاديث أخرى معادية للنساء لم تأت الكاتبة على ذكرها « ناقصات عقل ودين »[٥١] ودون أن نبحث في السند والتاريخ ـ نجد أن الحديث لا هدف له سوى شتم النساء ، وهذا بعيد جداً عن أحاديث النبي ﷺ فهذا الحديث حتى يومنا هذا لا يُقال إلا في مجال التهجم على المرأة ، فإنّ النبي الذي قال أكمل الحديث وأحسنه لا يمكن أن يقول عبارة فيها جرح لكرامة وإحساس أي إنسان ، فالأحاديث

(٥١) روى الإمام البخاري والإمام مسلم في صحيحهما عن أبي سعيد الخدري قال : خرج رسول الله ﷺ في أضحى أو فطر إلى المصلّى فمرّ على النساء ، فقال : يا معشر النساء تصدّقن فإني رأيتكنّ أكثر أهل النار . فقلن : ولِمَ يا رسول الله ؟ قال : تكثرن اللعن وتكفرن العشير ، ما رأيت من ناقصات عقل ودين أذهب للبّ الرجل الحازم من إحداكن ، قلن : وما نقصان عقلنا وديننا يا رسول الله ؟ قال : أليس شهادة المرأة مثل نصف شهادة الرجل ؟ قلن : بلى ، قال : فذلك من نقصان عقلها ، أليس إذا حاضت لم تصلّ ، ولم تصم ؟ قلن : بلى ، قال : فذلك نقصان دينها .
تعليقي : لا أدري كيف يمكن تصديق مثل هذا الحوار بين نبي فاق كل الأنبياء بحسن الخلق وبين مجموعة من النساء ، ليس بهذا الأسلوب يتكلم نبيّ مع النّاس رحم الله عمر بن الخطاب رضي الله عنه الذي رفض أن يحدّث عن النبي ﷺ .

كانت لتفسير أحكام الـــدين ، والنهي عن الشر ، والحث على الخير ، وهذا الحديث المدسوس ليس فيه أي هدف مفيد في مجلة الناقد[٥٢] عدد شباط ١٩٩٣/مقالة طويلة للدكتور حسن حنفي ، يتحدث فيها أن القضاء المصري قد أغلق مجلة تصدرها جمعية تضامن المرأة العربية هي مجلة (نون) تمارس حق الاجتهاد ، أي مقابلة النص الثابت بالواقع المتغير ، وذلك عن طريق إعادة التفسير والتأويل ، ومنها موضوع اتهام المرأة بأنها ناقصة عقل ودين ، حسب المأثور فإنه يُساء تأويله واستخدامه ، على فرض صحة الحديث ، فقط ارتبط الحديث بوضع تاريخي للمرأة قديماً ، ولا ينطبق الوصف على كل النساء في كل العصور ، وقد يعني الحديث نقصان الخبرة نظراً لعدم احتكاكها المستمر بالمجتمع في العمل والتجارة ، وقد يعني تقرير الواقع ، عدم شيوع المرأة القيادية .

---

(٥٢) مجلة الناقد العدد السادس والخمسون شباط ١٩٩٣ ، مقال طويل تحت عنوان (المرأة من ختان الفراعنة إلى أصفاد الإسلام الرسمي) للدكتور حسن حنفي .

وقد جاء في عدد لاحق من مجلة الناقد عدد كانون الأول[٥٣] ١٩٩٣/مقالة لقارئه تناقش الدكتور حنفي وتقول له : أما اتهام المرأة بأنها ناقصة عقل ودين اِسمح لي أن أصحح بأنه ليس اتهاماً ، بل إنها حقيقة صدقها الرسول وهو لا ينطق عن الهوى ، وأيضاً هو ليس مرتبطاً بوضع تاريخي للمرأة كما قرر الدكتور ، وتشرح له أنّا ناقصات عقل ، لأن المرأة بطبيعتها عاطفية أكثر من الرجل ، وأنها تميزت بالأمومة ، ولكنها لم تفسر لماذا قيل عن المرأة حسب مفهومها ناقصة دين ، وإني لأعجب من فتاة تقرّ أنها ناقصة عقل ودين ـ وتسمح لنفسها بعد ذلك أن تناقش دكتوراً في قسم الفلسفة بالجامعة في قضايا فكرية ودينية ، يستطيع الدكتور حنفي أو غيره أن يقول لها عندئذ : أنا لا أقبل مناقشة ناقصة عقل ودين .

والادعاء أن المرأة عاطفية لهذا فهي ناقصة عقل تفسير بعيد عن الحقيقة فالأبطال عاطفيون والشهداء عاطفيون ، إن

(٥٣) مجلة الناقد : العدد السادس والستون كانون أول ، ميّادة رشيد رجب ، تحت عنوان (من أعطاكم حقّ الاجتهاد) .

الأمومة لا تعني نقصاً بالعقل على عكس ذلك إن الأمومة وتنشئة الأجيال تحتاج لكمال العقل ، فليست الأمومة مجرد إنجاب ورضاعة ورعاية جسد الطفل ، بل إنها تنشئة للإنسان بعقل ذكي وإرادة قوية .

وفي كثير من الحالات نجد أن الأب عاطفي ومتساهل بينما الأم حازمة وقوية أكثر وهذا الحديث أيضاً بعيد جداً عن وصف المرأة بعهد النبي ﷺ كما فسرّ بعضهم لأن النبي ﷺ عاصر مجموعة من النساء اللواتي خلدّهن التاريخ .

إن نبياً عاصر امرأة **كخديجة** ، المرأة التي استوعبت انفعالات النبي الأولى مع نزول الوحي ، وساندته لآخر لحظة في حياتها بإيمانها وإرادتها لا يمكن أن يقول عن المرأة ناقصة عقل ودين ، وإن نبياً كانت معه امرأة **كعائشة** بذكائها وفطنتها وقوة شخصيتها لدرجة قال عنها النبي : « خذوا جزءاً من دينكم أو (نصف دينكم) عن هذه الحميراء » ، لا يمكن أن يقول عن المرأة ناقصة عقل ودين **إن الإسلام الذي أنشأ شخصية هي أسماء بنت أبي بكر** ، رفضت **أن يتراجع ابنها عن حقه**

السياسي أمام بني أمية ، حتى لو قتل ومثل بجثته[٥٤] ، لا يمكن أن يعتبر المرأة ناقصة عقل ودين .. وإن نبياً وقفت إلى جانبه نسيبة الأنصارية[٥٥] في معركة أُحُد ، تبعد عنه سيوف الكفار ، حتى جرح ذراعها ، وظلت فخورة بآثار جرحها لا يمكن أن يقول عن المرأة هذا القول .

أما بالنسبة للجزء الثاني ناقصة دين فيقال في تفسيره لأن المرأة تنقطع عن الصلاة والصوم بفترة الدّورة الشهرية ، لا أعتقد أن أحداً يقيس الدين بعدد أيام الصلاة والصوم ، وحتى في هذا المجال ، قد تصلي المرأة صلوات إضافية ، وكذلك الصوم فإنها تعاود الصيام .. أخيراً إنني أثق بعظمة النبي وحكمته وحديثه أحسن الحديث وأكمله ، ولقد وصفه القرآن : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم : ٤/٦٨] ، ﴿ لَوْ كُنْتَ فَظّاً غَلِيظَ القَلْبِ لاَنفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ﴾] آل عمران : ١٥٩/٣] ، على ضوء كل هذا أرفض هذا الحديث الموضوع ، ولا داعي لأن نبحث له عن تفسيرات هزيلة .

---

(٥٤) علي الطنطاوي ، رجال من التاريخ ص٢٧ مرجع سابق .

(٥٥) ابن كثير السيرة النبوية جـ٦٧/٣ .

الحديث الآخر الذي لم يأت البحث عنه في كتاب الحريم السياسي هو : « لو أمرت أحداً أن يسجد لأحد غير الله لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها »[٥٨] .. نجد عبارة لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها فيها (تعميم) إذ ليس كل الأزواج ذوو فضل على زوجاتهم ، هناك الأزواج المقصرون والمستبدون ، والظالمون والفاسدون في سلوكهم ، فكيف يشملهم النبي بهذا الحديث !؟ ثم إن معاملة النبي ﷺ لزوجاته كانت بعيدة عن هذه الحالة ، كانت علاقة النبي ﷺ مع زوجاته فيها الاحترام والمحبة والتسامح والرقة المتناهية ، كما أنّ القرآن الكريم وصف العلاقة بين الزوجين[٥٩] (بالمودة والرحمة) .

---

(٥٨) الحافظ المنذري ـ كتاب الترغيب والترهيب ج٣/٥٤ .
جاءت هذه العبارة (الحديث) في أكثر من حديث في صيغ مختلفة ذكرها للرجع السابق وأسانيد هذه الأحاديث بعضها جيد .

(٥٩) [الروم : ٢١/٣٠] .

تحت عنوان ، النساء والسفهاء ص ١٥١

تقول الكاتبة : قال الرجال : كيف يمكن إعطاء المرأة والطفل اللذين لا يعملان ، ولا يكسبان ، الحقّ بالإرث ، فحاولوا تحويط القوانين ، بالرجوع إلى تصنيع التفسير لدعم امتيازاتهم ، وتضيف : سوف يضاعف الله من الاحتياطات بهدف منع كل غموض ، الآية ﴿ ولكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إن لَمْ يَكُن لَهُنَّ وَلَدٌ فَإن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَا أَو دَيْنٍ وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مَمَّا تَرَكْتُمْ إنْ لم يكنْ لكم وَلَدٌ ﴾ [النساء : ١٢/٤] .

وتتابع : وبالرغم من كل هذه الاحتياطات والتوضيحات ، استمرّ الرجال بتصميم ، على خنق البعد الإسلامي في المساواة .. ثمة آية تستعمل عبارة على جانب من الغموض هي عبارة (السَّفيه) سوف يستخدمونها مقفزاً ، لإبطال القوانين الجديدة .. الآية ﴿ وَلاَ تُؤتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمْ الَّتي جَعَلَ اللهُ

لَكُمْ قِيَاماً ﴾ [النساء : ٥/٤] . وتلك الآية كانوا ينتظرونها ، بِمَا أنّ السُّفهاء مستثنون ، فإنّ النساء هن سفهاء ، وتقول : « كلمة سفيه » ليس لها علاقة بالجنس ، وإنّما ترتبط بفقدان التمييز وتبذير المال ، يقول الطبري : فمن يقول : « السُّفهاء تعني النساء ، إنّه يشوّه اللغة بكل بساطة » .

أما تعليقي عما ورد سابقاً ، فلقد أدهشتني فعلاً ، هذه المواقف من المرأة إنّهم بذلك يسيئون للقرآن الكريم أعظم إساءة ، يتجاهلون آيات متعددة ، وتفصيلات محكمة ، أول الأمر شككت بالذي أوردته الكاتبة ، عن النساء والسفهاء ، حتى قرأت في تفسير ابن كثير(٦٠) : حيث يقول : ينهى سبحانه وتعالى عن تمكين السُّفهاء من التصرف في الأموال التي جعلها الله للناس قياماً ، وقال ابن عبّاس : السُّفهاء هم بنوك والنساء ، وقال الضحّاك : هم النساء والصبيان ، وقال ابن حاتم عن أبي أمامة : قال رسول الله : « إنّ النساء سفهاء ، إلاّ التي

(٦٠) ابن كثير ٤٥٢/١ ، محمد علي الصابوني - مختصر ابن كثير ج١/٣٥٧ - ٣٥٨ ، مرجع سابق .

أطاعت قيّمها » ، وقال سعيد بن جبير : « هم اليتامى » ، وقال مجاهد وعكرمة : « هم النساء » .

وإنّي أتساءل كيف وصلوا لهذا التفسير المغلوط ، وما فيه من تناقض صارخ ، فالآيات تبدأ هكذا ، قال تعالى : ﴿ وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً ﴾ [النساء : ٤/٤] ، أي فريضة ، وبعدها مباشرة ﴿ وَلا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوالَكُمْ الَّتي جَعَلَ اللهُ لَكُمْ قِيَاماً وَارزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُم وَقُولُوا لَهُمْ قَولاً مَعْرُوفاً ﴾ [النساء : ٥/٤] .

فالآيات السابقة : تأمر بإعطاء النساء حقّهم في المال ، وتنهى عن إعطاء السُّفهاء المال .

وقال تعالى : ﴿ لِلرِّجَالِ نَصيبٌ مِمَّا تَرَكَ الوَالِدان والأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الوَالِدَانِ والأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَو كَثُرَ نَصِيباً مَفْرُوضاً ﴾ [النساء : ٧/٤] .

والآية : ﴿ وَلاَ يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئاً ﴾ [البقرة : ٢٢٩/٢] .

والآية : ﴿ وَإِن أَرَدتُّم استِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَاراً فَلاَ تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئاً ﴾ [النساء : ٤/٢٠] .

وفي تفسير الجلالين : ﴿ ولاَ تُؤْتُوا ﴾ أيها الأولياء ﴿ السُّفَهاء ﴾ : المبذرين من الرجال والنساء والصبيان[٦٦] .

ومن كتاب (المرأة في الإسلام) للدكتور علي عبد الواحد وافي[٦٧] : هذا الرأي أو التفسير : أعطى الإسلام الحقوق المدنيّة نفسها التي أعطاها للرجل ، يحق لها أن تتعاقد وتتحمل الالتزامات ، وتملك العقار والمنقول ، وتتصرف فيا تملك ، ولا يحقّ لوليها التصرف في أموالها .

وأضيف : إنّ المحاكم الشرعيّة في كل العهود ، أعطت المرأة حقها المالي بما أمر الله .. لماذا إذن تبقى مثل هذه الأقوال والتفسيرات المضللة لآيات القرآن ، في تفسير ابن كثير ، إننا بذلك نترك ثغرات يتسلل منها الذين يسيئون إلى مفاهيم الدين ، والذين يشككون بعدالته .

(٦٦) تفسير الجلالين مرجع سابق [النساء ص١٠٢]

(٦٧) د . علي عبد الواحد وافي (المرأة في الإسلام) مرجع سابق .

شخصية عمر بن الخطاب رضي الله عنه

على الرغم من أن الكاتبة تضع عمر رضي الله عنه في إطار الرجل العنيف مع النساء ، وقد ناقشت هذا الرأي في الجزء الأول . إلاّ أن الكاتبة لم تهمل وصف شخصية عمر التاريخية فهي تقول : (ص٩٩) إن عمر بن الخطاب الذي كان يتمتع عند الرسول ﷺ وعند الجماعة الإسلامية بالأمس واليوم بتأثير لا مثيل له وذلك لعدة أسباب ، منها احترامه وتقديره وبصفته رجل سياسة وجرأته على المستوى القتالي ، وقوة شخصيته ورهبته للكذب قد تجنب رواية الحديث ، لقد كان عمر يرتعب من فكرة أن لا يكون مستقياً دقيقاً ، ولهذا السبب كان عمر من بين الصحابة الذين يفضلون الاستناد على رأيهم الخاص بدلاً من أن يعتمدوا على ذاكرتهم حيث يحسبون أنّها معرضة للخطأ بشكل خطير ..

ص ١٧١ عمر ونساء المدينة ، كان اعتناقه للإسلام موضع عجب كبير للنبي ﷺ فيه كسب من أجل قضيته ، أحد رجال مكة الأقوياء ، وما إن اعتنق عمر الإسلام حتى انقلب ضد قريش ، وجابههم ، حتى إنه شقّ طريقه بالقوة نحو الكعبة ، وكان أول من جرؤ لإكمال الصلاة فيها ، وصلينا معه (السيرة جزء ٣٦٦/١) إن محمداً ﷺ الذي كان أعجب به قبل إسلامه ، سوف يوليه انتباهاً خاصاً ، كان يحب فيه تصلّبه فيما يخصّ العدالة ، ولقبه بالفاروق الذي لديه قدرة التمييز بين الحق والباطل ، الأمر الذي لم يكن سهلاً بالنسبة لمعتنقي الإسلام الجدد . وقدّر النبي فيه ذهنيته الناقدة فبرأي عمر : إنّ على العربي أن يتحقق إلى أين يقوده رئيسه ، ولا يجب عليه أن يطيع أوامره دون توافر أي قناعة .

عندما أصبح عمر خليفة فيما بعد أعطى نموذجاً للخليفة المثالي الذي جعلنا نحب الإسلام في كتب تاريخ المدرسة الابتدائية ، حاكم يصغي للمحكومين ، وبخاصة أنه يدافع عن الفضيلة ، ويزدري الإثراء إلى حد الإملاق ، كان عمر يعيش

ببساطة يرتدي ثياباً خشنة ويبدو صارماً بالنسبة لكل ما يتعلق بعبادة الله .

كان لباسه يتألف من جبة مرقعة بقطع من الجلد ومواد أخرى ، وعباءة كان يتدثر بها ، وبالرغم من التكريم الذي كان يتلقاه في القسمة لم يكن يتردد في حمل قربة على كتفه ، وكان عنده في العادة مطية جمل ، يحمل عليه متاعه ويشدّه بحبل من ألياف النخيل ، وتلك كانت عادة ولاته على الرغم من اتساع الإمبراطورية ، ووفرة الثروات التي منحها لهم الله .

الخاتمة : نشكر الكاتبة على جهودها ، ونرجو أن يكون الحرص على حماية الحقيقة القرآنية . هدف كل مؤمن برسالة الإسلام .. وهدف كل عربي ..

كتاب

الخوف من الحداثة

الإسلام والديموقراطية

أضـواء على كتـاب
الخوف من الحداثة ـ الإسلام والديمقراطية[1]
للدكتورة الباحثة فاطمة المرنيسي

مدخل :

رؤية الكاتبة للمستقبل :

حرب الخليج كانت مرآة الكاتبة لرؤية دقيقة للحاضر ، والعودة إلى الماضي لدراسته ، لكي يتحقق العبور نحو المستقبل ، تقول : حطمت حرب الخليج شيئاً ما في عمق ذاتنا ، وذلك بغرزها السكاكين في الجروح الأكثر إيلاماً : « التبعيّة ـ الديمقراطية ـ العجز » .

---

(١) الخوف من الحداثة ـ الإسلام والديمقراطية ، للباحثة فاطمة المرنيسي ، العنوان الأصلي للكتاب peur Modernite Canflit Islam-Demecratie ، عن دار Allin Michel ـ باريس ١٩٩٢ ، دار الجندي دمشق الطبعة الأولى ١٩٩٤ ، ترجمة د . محمد الدبيات .

معوقات الديمقراطية في العالم العربي :

ومع الكاتبة نقف عند محطات تاريخية وفكرية ، تسميها المخاوف التي تحول دون تحقيق الديمقراطية ، مع إيمانها أن حرب الخليج فرصة للعالم العربي لكي يتجاوز هذه المخاوف :

١ ـ الخوف من الغرب الغريب .

٢ ـ الخوف من الإمام (الطاعة والرأي) .

٣ ـ الخوف من التقليد الاحتجاجي (ذكرى الخوارج) .

٤ ـ الخوف من الديمقراطية (أزمة وضياع) .

٥ ـ غموض الإصلاحيين (بسبب الخوف من الحداثة) .

٦ ـ الخوف من حرية التفكير (الشرك والرحمة) (٣٦٠) إلهاً في مكة .

٧ ـ الخوف من الخيال .

٨ ـ الخوف من الفرديّة الطاغية .

٩ ـ الخوف من الماضي (خلف الحجاب الإلهات) .

١٠ ـ الخوف من الحاضر (تقويم مقدس وزمن عالمي) .

ثم يأتي السؤال .. هل تلك المخاوف التي أوردتها الكاتبة كلّها حقيقيّة ؟ أمْ أنّ بعضها مخاوف وهمية ؟؟

رؤية الكاتبة للإسلام ص٣٦ :

تقول : يُقدَّم الإسلام حاليّاً على أنّه مَعْقَل الاستبداد والتزمت ، حيث لا مكان للعقل ، فالمسلمون مسالمون ، يطيعون بدون تفكير إمامَهم المُطْلَق السُّلطة .. تدحض الكاتبة وتستنكر هذا الادّعاء وتؤكد زيف هذه الأقوال فتقول : ليس هناك أكثر بطلاناً من ذلك التزمت الكاذب المنسوب للمسلمين لسببين :

١ ـ تاريخ الزعامة في الإسلام ملحمة حزينة من الاغتيالات السياسيّة ، وذبح الإمام من قبل المؤمنين المستائين .. وتسمية التقليد الإسلامي الاحتجاجي أو (الديمقراطية العفوية) .

٢ ـ التقليد العقلاني ، التفكير في إدارة سياسيّة يدخل فيها العقل والرأي الفردي ، أهم تيّاراته (المعتزلة) .

وتضيف : الديمقراطيّة أي تأكيد استقلاليّة الفرد تجاه استبداد الزعيم ليست أمراً جديداً ، كما يصرح أئمتنا ، بل إنّها مكبوتة .

صورة الحاكم في الإسلام :

تقول الكاتبة : ربما لم تشهد الأرض البتّة سلطة ضعيفة كسلطة الإمام ، فلا يجب طاعته ، إلاّ إذا كان عادلاً (ص ٣٥) ، وتعقب : ولكن صورة الحاكم العادل في الإسلام تغيب عن الصورة الإعلامية المعاصرة ، بسبب إرادة الصحفي الغربي المهتم بتزويد مستمعيه بسرعة الأخبار ، وثانياً : بسبب إرادة الزعيم السياسي ، أن تجري معه المقابلات ، والذي يملك رسالة دقيقة للبيع ، ولا سيّما رسالة الطاعة التي يدين بها المسلمون له .

الإسلام السياسي ـ بين الأنظمة والمعارضة

تقول الكاتبة : نظرية القائد المثالي ، والعلاقة بين القائد والجماهير ، اختفت من الإسلام الحديث ، هذا الإسلام الذي يتلاعب بمفاهيمه السياسيون بوقاحة ، لإخفاء طموحهم الشخصي في ممارسة الاستبداد ، وأيضاً قادة المعارضة ، باسم الإسلام ، لا يطرحون : أن الشعب مصدر التشريع ..

وتقول : إن جهلنا بالقرون الوسطى الإسلاميّة ، يعبّر عن مشروع سياسي محدّد ، كيف يمكن أن نضع هويتنا الإسلاميّة ، دون معرفة بالماضي ! فالدولة الأصولية تستثمر الماضي لمصلحتها ، وتمنع الكتب التي تحاول إضاءته ..

الإسلام والعقل :

تقول الكاتبة : التحليل العقلاني للإسلام يجعله من الصعب (ص٣٤) أن يكون في خدمة الطغاة ، لهذا تمّ اجتثاث التراث

العقلاني من ذاكرة المسلمين ، أي ما طرحته الفلسفة الإسلاميّة ، والتصوف الإسلامي .. ولكن إذا كان التقليد العقلاني والإنساني، قد حاربه الاستبداد السياسي، فهذا لا يعني أنّه غير موجود..

(الفلاسفة والصوفيون المسلمون طرحوا مشكلة العقل والرأي ، كما فعل الأوربيون في عصر التنوير) .

الإسلام والعلم :

تقول الكاتبة : البحث العلمي كان مرتبطاً بتفتح التفكير الصوفي ، أفضل عبادة لله ، هي استخدام عقلنا ، وبالمقارنة مع المسيحيّة ، ذلك التناقض بين الكنيسة والبحث العلمي ، ومثال ذلك الحكم على غاليلو، الأمر الذي لا يوجد في الإسلام (ص٤٦) .

تحت عنوان الخوف من الإمام ـ أوردت الكاتبة فاطمة المرنيسي في كتابها (الخوف من الحداثة) ـ الإسلام والديمقراطية، ما أسمته التقليد الاحتجاجي الخوارج ـ والتقليد العقلاني للمعتزلة .

التقليد العقلاني للمعتزلة :

تقول : وجد المعتزلة أنفسهم ، في مواجهة السياسة ، فلو

كنّا كائنات عقلانية ومسؤولة ، لما أمكننا الطّاعة ، إلاّ إذا توافرت شروط التصويت الشعبي . كان المثقفون المعتزلة فلاسفة ورياضيين ، أطباء ومهندسين ، بل وصوفيين ، **يبحثون في النصوص الدينية ، عن كل ما يمكنه ، أن يدعم فكرة الفرد المتفكرّ المسؤول وعن المعتزلة والحكم تقول** : انتصر التقليد العقلاني ، وصل العباسيّون إلى الحكم ، وهم يمتطون أحصنة العقل ، تبنّى العباسيون الفلسفة المعتزلة ، عقيدة رسميّة للدولة ، طوال قرن على الأقل ، وكان هذا القرن ، يعني احتضان المعرفة الإنسانيّة ، لاسيّما ترجمة العلوم والفلسفة اليونانيّة إلى اللغة العربيّة كمشروع حكومي ابتداء من حكم المأمون .. وتضيف : وللأسف سرعان ما غرق العبّاسيّون بدورهم في الاستبداد ، وصار المعتزلة منبوذين ، أطلق على التيّار العقلاني ، أكانوا رياضيين أم علماء منطق ، أم أطبّاء قد سموا فلاسفة ، ممّا سهّل إدانتهم جماعيّاً ، عندما غرق العبّاسيون في الطغيان ، وفرض الطاعة ، لم يتعاملوا إلا مع أهل الحديث ، تلك السُّلطات الدينية ، التي تتمسك بتفسير

ضيّق للشريعة ، والتي تعني المعرفة المنزّلة باللغة العربيّة ، أمّا الفلسفة ، ذلك الإثمار الجريء ، للمعرفة الأجنبية ، فقد دُعَيت بعلم الكلام .. ويهوي العالم الإسلامي إلى هاوية الظلام (ص ٥٠ و ٤٩) ، وتقول أيضاً : الغرب يخيف لأنّه يرغم المسلمين ، على أن ينبشوا أجساد كلّ المعارضين المتدينين والدنيويين ، أو أجساد المثقفين الذين ذبحهم الخلفاء لأنهم كانوا يتحدثون كما يقول البلاط بأفكار غريبة قادمة من اليونان والهند ومن الديانات الفارسيّة القديمة .. وكمثال على ذلك تقول الكاتبة : الغرب يرغم المسلمين على تذكر الإمام مالك بن أنس زعيم المدرسة المالكيّة التي نتّبعها في شمال إفريقية والذي توفي عام ١٧٩ هـ متأثراً بالضرب الذي تلقّاه أثناء محنته .

وتضيف : هذا الغرب الذي لا يتوقف عن الحديث عن الديمقراطية عبر أقماره الاصطناعيّة ، ووسائله الإعلاميّة ، تخيف أحاديثه البعض لأنّها توقظ العظماء والمنسيين (ص ٢٣ ـ ٢٧) .

ومن الماضي تعود الكاتبة إلى الحاضر فتقول : التقليد الذي عرف باسم الشريعة ، هو الذي يقف عائقاً ، في أيّامنا هذه ،

في وجه مسيرة الديمقراطية ، وذلك بربطه طاعتنا العمياء للزعيم ، باحترامنا للدين [ص٥٠] . كل مطالبة لعلاقة عقلانيّة ، ونقديّة من القائد ، توصف بأنّها رفض للإسلام ولنا وقفة حوار مع الكاتبة ، لنطرح هذه الأسئلة :

ـ هل كانت إدانة المعتزلة على أساس أنهم حملة تراث غريب ؟

ـ وهل تيّار المعتزلة كان ذلك الإثمار الجريء للمعرفة الأجنبية ؟

ـ ولماذا ضرب الإمام مالك بن أنس ؟

وهل الغرب هو الذي يجبر المسلمين على تذكر المعارضين والمثقفين ؟

أولاً : نجد تقزيماً لمعطى اللغة العربية ، وتضخيماً للدور الأجنبي . يقول د . محمد عمارة[٢] : بدأت محاولات الغرب الجادة ، لاحتواء العرب والمسلمين حضارياً ، فلقد تحوّل وطننا

(٢) الدكتور محمد عمارة : الإسلام وقضايا العصر ص١٣٠ ، دار الوحدة بيروت ، الطبعة الأولى ١٩٨٠ .

إلى هامش ، لاقتصاد الغرب ، يقدّم العمالة الرخيصة والمواد الخام ، وأصبح سوقاً لسلع الحضارة الغربيّة . ويقول : إنّ حركة الاستشراق في مجملها ، **قد تعمدّت بث رُوح الهزيمة في عقول الأمة وقلوبها ، بإبرازها الجانب المظلم** ، من تراث أمتنا ، وردّها كلّ إيجابيّاته إلى تراث أوروبة اليوناني ، الأمر الذي رسّب في العقول ، أنّ أمتنا لم تصنع مجداً متميزاً وخاصاً .

وعن المعتزلة يقول الدكتور عمارة : خلافاً لِمَا هو شائع ، في كثير من دوائر الفكر ، استشراقيّة وعربيّة وإسلاميّة ، كانت نشأة التيّار العقلاني في الحضارة العربيّة الإسلاميّة ، استجابة محليّة لضرورات ، فرضتها تحدّيات ، ظهرت في واقع المجتمع الجديد ، **ولم تكن هذه النشأة ثمرة لحركة الترجمة للفكر** الفلسفي ، وفلسفة اليونان بالذات ، فالعرب قد بدأ عهدهم بالترجمة زمن خالد بن يزيد المتوفى ٩٠هـ/٧٠٨م .

بواكير ترجماتهم الكيمياء والطب والنجوم ، وحتى عصر الرشيد ، لم يُعْرف أرسطو كفيلسوف ، ولم تصبح الفلسفة اليونانية ، في متناول الحياة الفكريّة ، إلاّ بعد عصر المأمون ،

على يد الفيلسوف الكندي . فالمعتزلة طلائع الحركة العقلانيّة في حضارتنا ، **كانوا يَسَمّون أهل العدل والتوحيد** ، اشتهروا باسم المعتزلة ، بعد انشقاقهم واعتزالهم للحسن البصري . أوائل أهل العدل والتوحيد (واصل بن عطاء) ، وغيلان الدمشقي ، قد تتلمذا على أبناء ابن الحنفية (محمد بن علي بن أبي طالب) ، فهي إذن **نشأة عربية** ، بدأت بالمدينة ، وقبل أن يَعْرِفَ العرب المسلمون طريقهم إلى ترجمة اللاّهوت ، والفلسفة اليونانيّة بزمن طويل .

وتحت عنوان ـ **عقلانية ذات طابع خاص يقول د . عمارة :**

ـ لم تكن النشأة الْمُبكرة ، الدليل الوحيد ، على أصالة العقلانيّة الإسلامية بل ظلّت على هذه الأصالة ، وذلك التميز ، حتّى بعد أن تأثرّ أعلامها بعقلانيّة اليونان وفلسفتهم ، **هذه العقلانيّة طبعت تراثنا ، بطابع ميزّه عن كثير من مواريث الأُمم** ، عندما تميز بالموقف الوسطي ، بمعنى العادل لا التلفيقي ، بالنسبة لقضايا الدنيا والدين ، ونموذج ذلك

نجده ، عند « ابن رشد » فهو الشارح الأكبر لأرسطو ، ومع ذلك نجده ، صاحب أكثر المحاولات الجادّة والعميقة ، بل والعبقرّية في التوفيق ما بين الحكمة والشريعة ، واكتشاف ما بينهما من صلات .. فمن القسمات المميّزة للعقلانية في تراثنا ، **نجدها تزاوج بين التوحيد الديني وبين تأثير الطبيعة** ، ودورها في الوجود ، فالمعتزلة يرفضون أن تكون مصادر الاستدلال **فقط** (الكتاب والسنّة والإجماع) ، **ويرون إضافة العقل إليهما** .. حتّى يتم (التوفيق لا التلفيق) .

ويقدم د . عمارة الدليل النقلي على أنّ نشأة التيّار العقلاني في حضارتنا ، إنّما كانت استجابة نضاليّة ، لضرورات فرضتها تحدّيات ، أرادت زلزلة بنائنا الفكري ، وهي قصة تاريخيّة موحية وطريفة .

قالوا : إنّ زعيم السمينة (طائفة هنديّة) تنكر النبوّة ، وتتهم الرسل بتفريق البشر ، تكلم إلى ملك السند عن تهافت فكر المسلمين ، وقال له : إن الإسلام ما كان لينشر بغير السّيف ، ثم طلب منه أن يكتب للرشيد بهذا المعنى ، وطلب

قيام مناظرة بينه وبين أكبر فقهاء الإسلام ، على أن يتْبَعَ المغلوب دين الغالب .

دار الحوار بين قاضي بغداد وزعيم السمينة ، سأل السمني : هل معبودك قادر على أن يخلق مثله ؟ القاضي : هذه المسألة من علم الكلام ، وهو بدعة ، وأصحابنا ينكرونه ، التفت السمني إلى مليكه وقال : كنت أعلمتك دينهم ، وأخبرتك بجهلهم وتقليدهم ..

لَمّا بلَغ الأمر إلى الرشيد ، استشاط غضباً ، وتساءل : أليس لهذا الدين من مناظر عنه ؟.. فنبهه بعض خاصته إلى أنّ مثل هذه القضايا لا يستطيع المناظرة فيها إلاّ علماء الكلام من المعتزلة . [وقد كانوا في محنة طالت ، منذ قيام الدولة العباسيّة ، وثورتهم ضد المنصور ، لدعوتهم للخلافة الشوريّة ، ورفضهم توريث الملك والسلطان ..] .

أطلق الرشيد سراح نفر من علماء المعتزلة المسجونين ، **فهم وحدهم القادرون ، على الدفاع عن الإسلام ، بسلاح العقل ،** وأدرك الرشيد وغيره ، أنّ المعضلة التي عجز عن حلّها ، أكبر قضاة بغداد ، من أيْسر المسائل بالنسبة لهؤلاء العلماء ..

كان جواب معمّر بن عبّاد للسمني : إنّ سؤالك بمقاييس العقل خاطئ ، ومن ثم فليس له جواب صحيح ، ذلك لأنّ الله قديم ، وكل مخلوق له فهو حادث غير قديم ، ولّما كان الحادث لا يصير قديماً أي لا يصير إلهاً فلا يصحّ أن تسأل : هل يستطيع الله أن يخلق مثله ؟.

على ضوء ما مرّ ، وكون المعتزلة كانوا في محنة الاعتقال منذ عهد المنصور حتى عهد الرشيد بسبب دعوتهم للخلافة الشّورية ، ورفضهم توريث المُلْك ، دليل على أنّ العباسيين لم يصلوا إلى الحكم على أحصنة العقل كما قالت الكاتبة ، عوامل عديدة أضعفت الحكم الأُموي ، ووصل العباسيّون للحكم ، مؤيدين من الفرس ، ولم يكن عهدهم نهاية للاستبداد الأُموي بل إنّه اصطبغ منذ البداية بنظرية الحكم(٣) الفارسي القديم ، لهذا سمعنا المنصور يقول : « إنّه ممثل الله على الأرض .. » .

وبدليل اضطهاد الأئمّة في الزمن العباسي .

---

(٣) د . محمد خير فارس : التاريخ العباسي ص١٠ ، دمشق ١٩٦٨ .

اضطهاد الإمام مالك[٤] :

السبب الأرجح لتعذيب الإمام مالك أنّ مالكاً كان يحدّث في المدينة بحديث : « ليس على مستكره طلاق » فهمها الناس أنّها كالبيعة ، لا تصحّ بالإكراه ، وكان الوالي على المدينة هو جعفر ابن عم الخليفة المنصور ، فسعى إليه الوشاة يقولون له · إن مالكاً يفتي بأنّه لا يمين على مستكره ، « وهذا معناه أنّ ما أبرمتموه من بيعة الناس بالإستكراه ينقضه مالك بفتواه » ، فدسّ إليه جعفر من يسألونه عن رأيه بالموضوع فأبدى رأيه بصراحة ، وشهد عليه من دسّهم جعفر ، فأمر بإحضاره وضربه سبعين سوطاً ، وثار الناس في المدينة ، وبلغ الغضب مبلغه ، عند ذلك تدخل الخليفة المنصور ، فدعا الإمام مالك إليه ، وقرّبه منه وتأسف لما حصل له . إذن فاضطهاد الإمام مالك لا علاقة له بالأفكار اليونانية أو الفارسيّة ، إنه يتكلم بأحاديث النبي ﷺ .

---

(٤) د . أحمد الشرباصي : الأئمة الأربعة ص ٩٠ ، دار الجيل بيروت .

اضطهاد الإمام أحمد بن حنبل[٥] :

هو الإمام الذي تلقّى الضرب لأنّ رأيه يخالف رأي الخليفة ، والذي ينتمي إلى ما أسمته الكاتبة تقليد الشريعة ، وقول الباحثة إنّ تيّار المعتزلة جعل الفرد العاقل يقف كالسدّ تجاه المستبد ، نجد أن (أحمد ابن حنبل) والذي لا ينتمي إلى تيّار المعتزلة يقف كالسدّ ، ولا يتنازل عن رأيه والمفارقة أن ابن حنبل ضُرِبَ من قِبَل خليفة ، ينتمي لمذهب المعتزلة وهو المأمون ، أما المسألة التي صارت مدار خلاف وضرب بسببها الإمام ليست من أركان الدين وهي : هل القرآن مخلوق أم لا ؟

يقول المفكرّ الكبير روجيه غارودي[٦] : وهذا الخلط بين الفلسفة ، وفلسفة أرسطو ، سيزوّر كل المشكلات في الفكر الإسلامي ، أو في الفكر اليهودي أيضاً على يد الميموني أو

(٥) الأستاذ علي الطنطاوي : رجال من التاريخ ، المكتبة الأموية ، دمشق ١٩٦٨ .

(٦) روجيه غارودي : الإسلام في الغرب ص٣٩ ـ ٤٠ ، دار الهادي ١٩٩١ ـ بيروت ، ترجمة د . محمد مهدي الصدر .

الفكر المسيحي ـ سان توماس داكوين ـ ويقول : وسنهتم هنا بالفلسفة الإسلاميّة ، مُثْبتين أنّ ماأنتجته من أشياء عظيمة ، **كان رغماً عن أرسطو** ، ثمة ثلاث ملاحظات ذات مغزى من التفكير الفلسفي في الإسلام السنّي في الشرق ، تتيح لنا تتبع مسيرتها الاعتزال : كان الاعتزال أول من يطرح مشكلة العلاقة بين الإيمان والعقل وقد طرحها منذ البداية ، بشكل عميق ، أسير المنطق الأرسطي ، منطق الهويّة واللاّتناقض ، وقانون الثالث المرفوع ، وهذا يعني بعبارة بسيطة ، خضوع الفكر للغلّ الآتي ، الإجابة على كل الأسئلة بنعم أو بلا أو ماذا ؟ العالم هو إما أسود تماماً أو أبيض ، خُلُوّ من أي لون آخر ، ومثل هذا المنطق ، يقودنا عند تطبيقه على مشكلة العلاقة بين الإيمان والعقل (عقل أرسطو) إلى قياس أعوج خاطئ .. ومن هنا **ولدت مثلاً المشكلة الوهمية** : (هل القرآن قديم أم مخلوق) ؟ ، فالوحي الصادر من الله هو أزلي خارج الزمن ، وهو قديم غير مخلوق ، ولكنّه ينزل نحو الإنسان في التاريخ ، حيث نُقلَتْ الرسالة إلى كل الشعوب ..

ـ وتعليقي هنا : إن الحوار الفكري ، وساحته المساجد قد أغنى الفكر الإسلامي ، فالاختلاف يعني الحوار والأدلة والبحث .. ولكن عندما تدخّل الخليفة كطرف تحوّل حتّى مذهب العقل والعلم وسعة الأفق للمعتزلة إلى استبداد .

وقول الكاتبة (ص٤٨) : استخدم العباسيّون لترسيخ استبدادهم مفكرين ينتمون إلى نهج المعرفة القائم على الطاعة ، هذا التقليد عُرِفَ باسم الشريعة ، وهو التقليد الذي يقف عائقاً في أيامنا هذه في وجه المسيرة الديمقراطية .. أقول : ليس في شريعة الإسلام أيّ نهج يدعو إلى الطّاعة دون شروط ، وكما قالت الكاتبة (ص٣٥) ربما لم تشهد الأرض البتّة سلطة ضعيفة كسلطة الإمام ، فلا يجب طاعته إلا إذا كان عادلاً .

وأخيراً يبقى السؤال الرابع .. أقول : لن نضع ثقتنا دون شك بالغرب كمعلم وموجه سواء فيما يتعلق بالماضي أو الحاضر .. إنّ من يذكرّنا بالعظماء والمفكّرين . الباحث العربي والمؤرخ العربي .. فالإمام أحمد بن حنبل وهو يتلقّى الضرب جاء من ينصحه بالتنازل عن رأيه ، ويقول له : ألم يقل الله تعالى :

﴿ ولاَ تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ﴾ [النساء : ٢٩/٤] ؟ قال الإمام : يا مروذي اخرج فانظر أي شيء وراء الباب ، فخرج إلى صحن القصر ، فإذا جمع لا يحصيهم إلاّ الله ، معهم الدفاتر والأقلام وقالوا : ننتظر ما يجيب به أحمد فنكتبه ، وقال أحمد : يا مروذي أنا أضلّ هؤلاء كلّهم ، أقتل نفسي ولا أضلّ هؤلاء[(٧)] .

ولْنَسْمَعْ هذا المسلم القادم إلينا من فرنسا والذي يدعو الغرب لإعادة النظر في الحضارة الإسلامية ، **من خلال مشروعه الكبير حوار الحضارات** ، يقول : إنّ هذا الاستشراق ، الذي كان يسخّر غالباً ، لخدمة الأهداف التبشيريّة . والإمبرياليّة والسياسيّة في العالم الثالث ، قد أسهم إسهاماً كبيراً في خلق (تسويغ) علمي للغربيين لأحكامهم السابقة ، ولممارستهم التسلطيّة ، وقد تجلّى هذا الموقف من (الشرق) أول الأمر في تلك (النظرة) إلى الآخرين ، فالغرب لم يحاول أن يفهم (الشرق) ويتعلّم منه ويطلّع على ما (يحرّكه) من

(٧) علي الطنطاوي : رجال من التاريخ ص١٠٣ ، المكتبة الأموية دمشق ١٩٦٨ .

الداخل من عقيدة وثقافة ، بل نظر إليه من الخارج منطلقاً من مقاييسنا ـ نحن الغربيين ـ في فهم الأمور ، وكأنّ مسيرة الحضارة الغربيّة ، هي المثل الأعلى الذي يجب اتباعه ، وفي أحسن الأحوال ، كان الغرب (يعرف) مالدى الشرق ، ولكنّه لم يكن يحبّه(٨) .

والكاتبة نفسها تقول في ص ٢١١ : وفي الواقع إذا استعمل الغرب قوّته لتأسيس الديمقراطيّة في العالم العربي ، فإنّه يدمّر مصالحه الخاصة ، التي يضمنها له (الواقع الراهن) ، لأنّ الديمقراطيّة في العالم العربي ، تعني نقل السلطة إلى هؤلاء الملايين من الشباب ، الذين سيتمكنون من استخدام الثروات النفطية لمنفعتهم الخاصّة ، ومن ذلك إعادة النظر في الوضع الراهن ، الذي دعّمته حرب الخليج .

ومن كتاب (القادة) خفايا ما قبل وبعد حرب

---

(٨) روجيه جارودي : ما يعد به الإسلام ص٢٣٤ وما بعدها ، دار الوثبة دمشق ، ترجمة قصيّ أتاسي ، وميشيل واكيم الطبعة الأولى ١٩٨٢م .

الخليج[٩] : لفت نظري هذه الأقوال : يقول المؤلف : عملت مع البنتاغون لمدة سنة ١٩٦٩ ـ ١٩٧٠ ، في عهد بوش استقطب العسكر ، واستغلوا العسكر في بنما ١٩٨٩ ، وفي حرب الخليج ١٩٩٠م كأداة للسياسة الخارجية الجديدة ، ويقول في موضع آخر : وصف رئيس هيئة الأركان ، كيف اعتمد على علاقاته مع المراسلين ، حتى وثقوا به ، وقبلوا تفسيراته للأحداث ، وقال : عندما تحركون القوات ، وبعد اهتمام القادة بكل شيء ، حوّلوا أنظاركم إلى التلفزيون ، لأنكم لن تستطيعوا أن تكسبوا المعركة إذا لم تتولّوا القصة بشكل مناسب .. ويقول في موضع آخر :

كان (باول) يتوقع أن الحرب البرية حتمية حين يفكر فيها يشعر بالقلق على المارينز ـ هذه حرب حقيقية ـ وليست لعبة ، فالناس والعالم سيرون نسخة محدودة وغير فاسدة للحرب ، وسوف يتم إبعاد وسائل الإعلام ، حتّى أشرطة الفيديو التي تصورها آلات التصوير الموجودة في القاذفات ،

(٩) بقلم بوب ود دورد : القادة « خفايا ماقبل وبعد حرب الخليج ، للمؤسسة العربيّة للدراسات والنشر ـ بيروت ، ترجمة محمود برهوم .

والتي تظهر المجات ، سوف يتمّ تحريفها قبل عرضها على الناس .

كما أنّ الأصوات، سيتمّ التلاعب فيها، في معظم الحالات ، حتى يتم استئصال شكاوي الطيّارين العصبيّة ، فلن يسمع الناس شكوى الطيّارين ، الذين يشعرون بضغط بدلالتهم وأهوال القتال ، إنّهم أولاد فسوف يطيرون في الظلام ، خلف الخطوط لكشف الأهداف ، وقد يصل الأمر مجابهة رجل أمريكي برجل عراقي ، وكل منهما يريد أن يعيش .

في كتابها (الخوف من الحداثة) تطرح الكاتبة فاطمة المرنيسي موضوع الخوارج كأحد المخاوف التي تعيق مسيرة الديمقراطيّة في العصر الحديث .

تقول : التقليد الاحتجاجي ـ الخوارج ـ نوع من الديمقراطية العفويّة ، تنحية الزعيم دون التفكير بالتغيير الجذري ، فالمؤمن قادر نظريّاً على كل شيء ، من واجبه أن يثور ضد الإمام الظالم ، لقد قرّرت بعض الفرق وجوب قتله ،

وتقول : طرح الخوارج منذ الأيام الأولى التي تلت انتقال النبي ، قضية معرفة طاعة الإمام عندما لا يحمي الحقوق ، قالوا : لسنا مرغمين على الطاعة كلّ من يخرج على طاعة الإمام العادل يُسمّى خارجياً هكذا يعرّفهم الشهرستاني ، شعار الخوارج ، لا حكم إلا لله ، تحت هذا الشّعار أُدِيْنَ مئاتُ الأئمة ، آخرهم السادات .. انطلقت المعارضة السياسيّة في الإسلام كإدانة للزعيم وبهذا التقليد ارتبط الاحتجاج بالإرهاب ، فهؤلاء روّعوا المسلمين في الماضي كردّ على الاستبداد .

ـ أقول هنا : إن الخوارج الذين استمر نضالهم ومعارضتهم طيلة العهد الأُموي وكانت لهم اليد الطولى في إضعاف الحكم الأُمويّ ، لا بدّ أنّ لديهم نهجاً للتغيير الجذري ، وحركة الخوارج لم تبدأ منذ الأيام الأولى التي تلت انتقال النبي ﷺ كما أوردت الكاتبة ، فالخلاف انحصر في تلك المرحلة ، حول من أحقّ بالخلافة قريش أم الأنصار .

يقول الدكتور شوقي ضيف[١٠] عن الخوارج : بسبب

(١٠) الدكتور شوقي ضيف : التطور والتجديد في الشعر الجاهلي ج١٩٤/٢ وما بعدها ، دار المعارف بمصر الطبعة الثانية ١٩٥٩ .

التَّحكيم تعرض المسلمون لانشقاق آخر ، فقد انْسلخ عن عليّ جماعة من أنصاره ، ونادوا : لا حكم إلا لله وهم الذين عُرفوا بالخوارج .

سمّوا **الخوارج** لأنهم خرجوا على إمامهم الذي بايعوه ، وقيل بل هم سمّوا أنفسهم هذا الاسم من قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِراً إلى اللهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللهِ ﴾ [النساء : ١٠٠/٤] ، وسمّوا أنفسهم **الشراة** أيضاً من قوله تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللهِ ﴾ [البقرة : ٢٠٧/٢] .

استّمر الخوارج في جهادهم طوال عصر بني أُميّة ، وكانوا بالمرصاد دائماً لمن يولّونهم عليهم من أنفسهم ، بحيث إذا عَدَلوا عن الجادّة راجعوهم ، فإن رجعوا تركوهم ، وإلاّ عزلوهم ..

تعدّدت فرقهم ، أهمّها أربعة : الأزارقة والنجدات والصفريّة والإباضيّة ، وأساس مبادئ الخوارج جميعاً أن لا تُقصَرَ الخلافة على قريش . **فالخلافة ليست حقاً لقريش** ، بل

هي حقّ لله ، وينبغي أن يتولاّها خير المسلمين تقوى وزهداً وورعاً ولو لم يكن قرشيّاً .

شعراء الخوارج : شعراء الخوارج كثيرون كثرة مفرطة ، وتمتلئ كتب الأدب بأشعارهم ومقطوعاتهم ، وهي تسيل حماسة وبطولة ، ومن أهم ما يميّز الخوارج حقاً ، أنّهم كانوا حزباً فدائياً ، فكل منهم يقبل على الموت وكأنّه طلبته ، وقد بلغ من شدّة إيمانهم بمذهبهم ونظريتهم ، أن دوّخت فئات قليلة منهم جموعاً غفيرة للأمويين ولاتهم في العراق ، وممّا يُروى : أنّ أبا بلال خرج في أربعين ، بالأهواز لعهد عبيد الله بن زياد ، فرماه بجيش مؤلف من ألفى رجل ، فثبت الأربعون وفرّ الألفان ، وفي ذلك يقول شاعرهم عيسى بن فاتك :

أألفا مؤمنٍ منكم زعمتم	ويقتلهم بآسَكَ أربعونا
كذبتم ليس ذاك كما زعمتم	ولكنّ الخوارج مؤمنونا
هم الفئة القليلة قد علمتم	على الفئةِ الكثيرة يُنْصَرونا

وآسَكَ : موضع بهمذان .

شعر الخوارج يعبّر عن فدائية خالصة ، كلّه بطولة وحماسة واستبسال في سبيل العقيدة ، ويمتاز بأنّه ينفذ إلى القلوب نفوذاً ، فهو شعر يصدر عن عقيدة وإيمان بالغ بهذه العقيدة .

وقد ندب معاوية للخوارج الذين ثاروا عليه من أمعن فيهم قتلاً وبطشاً ، وفي عهد يزيد لم يلبث الخوارج أن جمعوا شملهم وعادوا إلى مناوأة بني أميّة ومنذ ذلك الحين ظهرت معارضة عنيفة لحكم بني أمية ، استمرت طوال العصر الأُموي ، واستطاعت آخر الأمر أن تودي بالدولة الأُموية ، لتحلّ محلّها دولة بني العباس .

كما شارك الخوارج تحت قيادة نجدة بن عامر الحنفي في الدفاع عن بيت الله الحرام إلى جانب ابن الزبير .

موقف جماهير المؤمنين من ثورات الخوارج : يقول الدكتور[11] إحسان النص لم تؤد معركة النهروان ٣٦هـ إلى

(١١) الدكتور إحسان النص : الخطابة السياسية في عصر بني أمية ص١٧ ومابعدها ، دار الفكر دمشق ١٩٦٥م .

استئصال الخوارج والقضاء على حركتهم ، بل على النقيض ، أدت إلى كثرة أتباعهم وانتشار دعوتهم ، ذلك أن استشهادهم على هذا النحو أثار إعجاب الناس بهم وعطفهم عليهم ، فضلاً على أنّ مبدأهم الذي يسوّي بين جميع المسلمين في حق تولي الخلافة كان خليقاً باستمالة جمهور كبير من الأنصار .

العقيدة والفقه : هدأت حركة الخوارج فترة من الزمن ، استقرّت فيها عقيدتهم واطمأنوا فيها إلى صواب دعوتهم وضلال مخالفيهم ، وسرعان ما وقع الاختلاف بينهم حول بعض الأمور ، التي أصبحت فيا بعد ، نواة للفقه الخارجي .

الفقه الخارجي(١٢) :

إن الصورة النهائية لعقيدة الخوارج لم تتبلور إلا بعد أن توقفوا عن مناهضة من بيدهم السلطة وفرغوا للبحث النظري في عقائدهم ، كاد الخوارج المتطرفون أن يستأصلوا في المواقع التي

(١٢) الفقه الخارجي استنتاج من كتاب الخطابة السياسية في عصر بني أمية ، للدكتور إحسان النص مرجع سابق .

خاضوها إبان العصر الأُموي ، ولا سيّما الأزارقة منهم ، فمن الطبيعي أن يكون الفقه الخارجي المتبلور من عمل الفرقة المسالمة التي قُدِرَ لها أن تبقى ، والإباضية منها بنوع خاص ، ونحن نلاحظ أنه منذ أن نادى الخوارج بشعار (لا حكم إلا لله) ، اكتسبت دعوتهم الطابع الديني .

الخلافة : ذهب الخوارج إلى أن الخلافة حق مشاع لجميع المسلمين وليست وقفاً على قريش ولا على العرب ، لأن الإسلام قد ساوى بين الجميع ، فالذي يراه المسلمون أهلاً للخلافة ويختارونه لأنفسهم بمحض إرادتهم يغدو خليفة شرعياً لهم ، ولعل أكثر الخوارج لم ينصروا علياً في بادئ الأمر لكونه من سلالة النبي ﷺ ، وإنما لأنه كان في نظرهم أجدر الناس بالخلافة ، وقد أجمع الناس على اختياره .

النصوص القرآنية : الخوارج شديدو التمسك بحرفية النصوص القرآنية والتعاليم الإسلامية فهم يتفقون على اعتبار الآيات القرآنية المعين الأول الذي يستقون منه عقائدهم .

الإيمان والعمل : الأصل الثاني الذي يقوم عليه المذهب الخارجي هو مسألة ارتباط الإيمان بالعمل ، وعندهم أن لا إيمان بلا عمل ، وقد ألجأ حكمهم المتطرف هذا سائر المسلمين إلى اتخاذ موقف محدد من هذه المسألة .

المرجئة : لم يعدّوا العمل جزءاً من الإيمان ، ولم يخرجوا مرتكب الكبيرة عن إيمانه .

أهل السُّنّة والمعتزلة : وقف أهل السُّنّة والمعتزلة موقفاً وسطاً في هذا الأمر بين الخوارج والمرجئة .

القياس : استخدم الخوارج القياس ليتاح لهم تعميم الأحكام المستمدة من النصوص القرآنية ، وإذ تتبعنا ما دار بين فرقهم المختلفة من جدل ومناظرات ، يتضح لنا مدى اعتمادهم الحرفي على النصوص القرآنية .

وحسب رأي الدكتور إحسان النص : قد أدى تمسكهم بحرفية النصوص القرآنية إلى ما يشبه أن يكون تناقضاً في أحكامهم ، فعلى تشددهم في تكفير مرتكب الكبيرة ومغالاتهم في

تقدير عقوبة الكاذب ، وقفوا موقفاً متساهلاً من مقترفي الزنى ، ولم يحكموا برجمه لعدم نص القرآن على ذلك .

عامل الخوارج أهل الذمة بالحسنى عملاً بوصية القرآن الكريم .

ولم يكن غريباً أن ينشق الخوارج على أنفسهم ويفترقوا إلى شعب متعددة ، وذلك لاختلافهم في تأويل الآيات القرآنية ، ولتشددهم في محاسبة زعمائهم ، ومغالاتهم في التمسك بالمبادئ التي اعتنقوها .

وتُعَدُّ الرسائل التي تبودلت بين نافع بن الأزرق ونجدة بن عامر ، عند وقوع الاختلاف بينهما ، ورسائل نافع إلى ابن الزبير ، وإلى خوارج البصرة من أقدم الوثائق في الفقه الخارجي ، وفي بيان وجوه الخلاف بين فرق الخوارج الأولى ، وحجج كل فرقة .

فقه الخوارج وعلم الكلام : حينما ظهرت الفرق الكلامية في العصر الأموي تسرب إلى عقائد الخوارج طرفاً من المباحث

الكلامية ، كالكلام في الاستطاعة وخلق الأفعال ، على أنه بوجه عام ظلت العقائد الخارجية طوال العصر الأموي بمنأى عن التأثيرات الفلسفية والنظر العقلي المجرد ..

الخروج والتقية : ومما وقع فيه الاختلاف مسألة (الخروج والتقية) ، فأكثر الخوارج لا يكفرون القَعَد ، ولا يبرؤون منهم ، والتقية جائزة لقوله تعالى : ﴿ إِلاَّ أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً ﴾ [آل عمران : ٣/٢٨] ، ولقوله أيضاً : ﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِن آلِ فِرْعَونَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ ﴾ [غافر : ٤٠/٢٨] ، إلا أن الجهاد إذا أمكن خير من القُعُود لقوله تعالى : ﴿ وفَضَّلَ اللهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى القَاعِدينَ أَجْراً عَظِيماً ﴾ [النساء : ٤/٩٥] ، والأزارقة يخالفون جمهور الخوارج في (القَعَد والتقية) ، فهم يكفرون القَعَد ويبرؤون منهم ولا يجيزون التقية ، وقد احتجوا في تأييد ما ذهبوا إليه بآيات من القرآن أيضاً ، منها قوله تعالى : ﴿ يُجَاهِدونَ في سَبِيلِ اللهِ ولا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ ﴾ [المائدة : ٥/٥٤] . وقد كانت بين الأزارقة ومخالفيهم مناظرات وجدل بشأن الخروج .

خطب الخوارج : خطب الخوارج تعكس لنا تأثرهم العميق بالقرآن الكريم ، وبأحكام الدين الإسلامي وقوة عقيدتهم ، فهم يعلنون مبادئهم في غير مواربة ويجاهرون بني أمية في العداوة في غير مداورة ولا مداهنة ويعددون مثالبهم ومطاعنهم التي دعتهم إلى الخروج عليهم ، ويدعون المسلمين إلى تأييدهم ونصرة مذهبهم ، وخطب الخوارج تصور خير تصوير نفسية هذه الجماعة المتطرفة في عقيدتها ، الحريصة على تطبيق أحكام الدين تطبيقاً مثالياً ، وتشف بيسر عن حزن صادق ، مصدره صيرورة أمور المسلمين إلى الحال السيئة ، وعدم استطاعتهم إصلاح الأمر .

المناظرات : الكاتب يقول : إنني لا أطمئن كل الاطمئنان إلى صحة كثير من هذه المناظرات التي حفظتها لنا المصادر الأدبية والتاريخية . وهذا يحملنا على التزام الحذر والاحتراس في حديثنا عنها . وحين ننظر في هذه المناظرات نجد جلّها يخرج عن الجدل السياسي المحض إلى التهاتر ، وذكر المثالب والتفاخر .

ولكن المناظرة التي جرت بين ابن الزبير والخوارج ، هي نموذج للمناظرات السياسية الممتازة ، لعدم خروجها عن نطاق المناظرة إلى المهاترة والمفاخرة ، لاعتمادها على المبادئ السياسية ، والاحتجاج لها ، والدفاع عنها .

٢ ـ ومن المحقق أن مناظرة عمر بن عبد العزيز للخوارج هي من خير ما وصلنا من المناظرات الأُموية ، وهي مزيج من السياسة والدين ، وقد اعتمد الفريقان المتناظران فيها على الجدل والحِجَاج ، وترفّعا عن التهاتر والتشاتم .

كان عمر ولعاً بمجادلة أصحاب المذاهب ، فلما بلغه خروج شوذب وجماعة من الخوارج كتب إليه : بلغني أنك خرجت غضباً لله ولرسوله ، ولستَ أولى بذلك مني ، فهلمّ إليّ أناظرك ، بعث شوذب إلى الخليفة عمر رجلين من الخوارج يناظرانه ، وقد استهلّ هذان المناظرة ، بسؤال عمر عن ولاّه الأمر ؟ وهل كان ذلك عن رضا من الناس ومشورة ، وهو سؤال لا يخلو من إحراج ، وأجابها عمر أن رضا الناس عن حكمه بمثابة الشورى ، فإن خالف الحق فلا طاعة له على الناس ، ثم حاول الخارجيان

إحراجه ثانية بأن طلبا منه التبرؤ من أهل بيته الذي خالف خطتهم وسلك غير سبيلهم ، فردّ عليهم ردّاً رقيقاً واكتفى بأن سمّى أعمال من سبقوه (مظالم) ولم يرضِ بلعنهم .

ثم مضى عمر ينقض أقوالهم ويظهرهم على ضلال دعوتهم بالحجة والبرهان ، وانتهت المناظرة بظهور حجة عمر واعتراف الخارجين بأن الحق في جانبه .

خبر المناظرة في العقد الفريد ، ونص المناظرة في الكامل للمُبَرد ١٧٢/٢ . ومع أن عمر قد ربح الجولة الأخيرة ، فإنهما استطاعا إحراجه في نقطة واحدة هي إقراره ولاية العهد ليزيد بن عبد الملك ، مع علمه بأنه ليس أهلاً لذلك ، وتذكر بعض المصادر أنّ عمر قد فكّر فعلاً في خلع يزيد من ولاية العهد ، وأن بني أمية احتالوا لذلك في دسّ السّم لعمر ، فلم يلبث ثلاثاً حتى مرض ومات ، [تاريخ الطبري ٣١١/٥] .

كان الخوارج بارعين في الجدل والمناظرة ، والدفاع عن مبادئهم وقد أقرّ لهم مناظروهم بهذه البراعة ، وقد روى المُبَرِد

أن أحد الخوارج ناظر الخليفة عبد الملك بن مروان وأخذ يزين له من مذهب الخوارج ودعوتهم بلسان طلق وألفاظ بينة مما حمل عبد الملك على القول : « لقد كاد يوقع في خاطري أن الجنة خلقت لهم ، وأني أولى بالجهاد منهم » [الكامل للمبرد ١٤٦/٢] .

المشاورات السياسية : من مجالس المناظرة المشهورة في عصر بني أمية تلك التي عقدها الخوارج للتشاور بشأن الخروج على سلطان بني أمية ، وأكثرها كان في زمن معاوية بن أبي سفيان ، وقد تكلّم في هذه المجالس بعض أعلام الخوارج ، كالمستورد بن علفة ، وحيّان بن ظبيان ، ومعاذ بن جوين ، ومما قاله ابن جوين في حضّ جماعته على الخوارج : يا أهل الإسلام إنّا والله لو علمنا أنّا إذا تركنا جهاد الظلمة ، وإنكار الجَوْر ، كان لنا به عند الله عذر ، لكان تركه أيسر علينا وأخف من ركوبه ، ولكنّا قد علمنا واستيقنّا أنّه لا عذر لنا ، وقد جعل لنا القلوب والأسماع ، حتى ننكر الظلم ونغيِّر الجور ، ونجاهد الظالمين ، [تاريخ الطبري ٢٢٩/٤] .

ونعود إلى الكاتبة حيث تقول : [في ص٢٨] :

الإعلان العالمي لحقوق الإنسان لا يخيف ، لأنه يقترح أنّ إرادة الشعب هي أساس سيادة السلطات العامة ، وأنّ لكل شخص الحق في أن يشارك بإدارة المصالح العامة ، لكنه يخيف بعضهم ، لأنه يوقظ ذكرى الخوارج ، الذي ترتبط ذكراهم بالإرهاب والفوضى ، لم يخطر ببال الخوارج مطلقاً أن يغيّروا العلاقة بين الزعيم والجماعة ..

أقول للكاتبة : على ضوء ما أوردته سابقاً ، لا أظنّ أنَ أحداً يخاف ذكرى الخوارج وكما أثاروا إعجاب الناس وعطفهم في عصرهم ذاك ، كذلك أثاروا إعجاب الدارسين والقرّاء في العصر الحديث ، وأطلقت عليهم بعض الدراسات اسم الحزب الجمهوري ، ولم يكن الخوارج سبب الإرهاب والفوضى ، بل كانوا ضحية الحكم الاستبدادي ، ولا شكّ كانت لديهم العقيدة والفقه كما مرّ معنا . وإذا ما انتقلنا إلى العصر الحالي فالجماهير تمتلك أقنية عديدة للحوار والتفاهم ، الصحافة ، الإذاعة ، الندوات ، الجمعيات ، المؤتمرات ، التصويت والانتخابات .

وكما قالت الكاتبة ـ د . مرنيسي ص٤٥ : تيّار الخوارج وتيّار المعتزلة كانا يتقاسمان فكرة أساسيّة ، هي أن على الإمام أن يكون متواضعاً ، ولا يجب في أية حال من الأحوال ، أن يجنح إلى الطّغيان .. وقالت أيضاً : الديمقراطية ليست غريبة على الشرق الإسلامي ، إنّه جرحه المتعفن الذي يصاحبه منذ قرون .. **وفي كتابها (السلطانات المنسيات)**(١٣) تقول الدكتورة مرنيسي عن الخوارج : « إنّ الصراع من أجل الديمقراطية ، بمعنى المساواة ، لم يبدأ مع استيراد إعلان حقوق الإنسان الذي هو غربيّ ، بل بدأ منذ القرون الإسلامية الأولى مع مذهب الخوارج ، الذين أنكروا شرط القُرَشيّة في اختيار الخليفة » .

---

(١٣) د . فاطمة المرنيسي : السلطانات المنسيات ـ نساء رئيسات دولة في الإسلام ، دار الحصاد دمشق الطبعة الأولى ١٩٩٤ ، ترجمة جميل معلّى ، وعبد الهادي عباس ص٤٥ ـ ٤٦ .

تحت عنوان ـ الخوف من الديمقراطية أزمة وضياع ص٥٨

طرحت الكاتبة فاطمة المرنيسي في كتابها الخوف من الحداثة (الإسلام والديمقراطية) **مرحلة الإصلاحيين والقوميين** .. تقول : الأفكار الإنسانية ـ حرية الفكر ـ السيادة ـ الفرديّة ـ حق المبادرة ، لم يتعامل معها الإصلاحيون في الحركة القومية في القرن التاسع عشر إلا بشكل مبهم ، هذه الحركة تمحورت حول الكفاح ضد الاستعمار فهي حكماً معادية للغرب ، مرغمة لكي تدافع عن نفسها ضد الاحتلال أن تتمسك بالتقاليد . **وتقول : كان القوميون في الواقع سجناء تاريخ يعوق الحداثة** . الأمر الذي لم يستطع إصلاحيو وسياسيو سنوات العشرينات والثلاثينات رؤيته في وضوح هو أن الانغلاق على العقل يضعف المسلمين أكثر من ذي قبل إلى أن يصبحوا جماهير مشوهّة وعاجزة كما عرضتها الشاشات في حرب الخليج .

وتضيف في ص٥٣ : أبرزت حرب الخليج أمام عيون العالم نازعة النقاب عن عالم عربي لا يزال التعليم جزئياً لكنّه مبتور لأن الرأي الفردي مصادر .

وتحت عنوان غياب دعامة الدولة وغموض الإصلاحيين تقول الكاتبة :

« الفلسفة الإنسانية العلمانيّة ، التي تبشّر بالتسامح وحرية التفكير ، ليست هجوماً على الله ، بمقدار ما هي هجوم على موظفي الدولة ومنعهم من استغلال المؤسسات لهدف الدعاية للدين ، فالعرب كغيرهم من شعوب العالم الثالث لم يحصلوا على ذلك المكتسب العصري المتأصل في فلسفة عصر التنوير بثورة فكرية تتجاوز القرون الوسطى » .

ولنا محطة حوار مع الكاتبة .

من المسلّم به أن الرأي الفردي مصادر على امتداد الوطن العربي ، هذا واقع ولكن كيف وصلنا إلى هذه المرحلة . هل كان الإصلاحيون والقوميون سجناء تاريخ يعوق الحداثة ؟. إن

نظرة موضوعية إلى التاريخ الحديث نرى فيه أن مجتمعنا كان أرضاً خصبة لنمو الأفكار الليبرالية والماركسية . ولا نتوقع من أمة أن تلغي ماضيها وتنقطع عن جذورها وخاصة عندما يكون الماضي تلك الحضارة العربية الإسلامية .

حركة القومية العربية :بدأت بذور الحركة القومية تنبت من النصف الثاني من القرن التاسع عشر وسط جو فكري وسياسي واجتماعي عام كان بعيداً عن هضم الفكرة القومية وكانت الرابطة الدينية ماتزال سيدة الموقف .

التأثر بالفكر الغربي : أدت عملية الاحتكاك بالغرب إلى توليد موقفين فكريين رئيسيين ، كان تأثرهما بالفكر السياسي الغربي بارزاً وواضحاً :

الموقف الأول : هو الموقف الذي لم يجد بدأ بعد انفتاحه على الفكر الأوروبي من العودة إلى التراث في محاولة لوصل ماانقطع بينه وبين التطور ، وفي سعي لإيجاد نقاط التقاء بين ذلك التراث وبين الثورة الديمقراطية ، الفكرية والسياسية التي شهدها الغرب ، وعن هذا الموقف الفكري توحدت حركة

البعث الإسلامي التي سعت إلى تجديد طريقة فهم الدين ، وإكسابه محتوى ديمقراطياً سياسياً واضحاً .

والموقف الثاني : هو الذي تبنّى النتائج التي طرحتها التجربة الأُوربية حرفياً ، ودونما اهتمام بإيجاد نقاط التقاء بينها وبين الدين وقد تمثل هذا الموقف الفكري **بالتيار الديمقراطي الليبرالي** ، الذي وجد في **الثورة الفرنسية** معيناً لا ينضب ، **إنهم هؤلاء الرواد** : جمال الدين الأفغاني ، كانت أفكاره تدور حول محاربة الطغيان والاستبداد والدعوة لمبادئ الحريّة والإخاء والمساواة ، إقامة حكم دستوري يستند إلى جوهر الدين وهو الشورى .

عبد الرحمن الكواكبي : تبنى الأفكار الديمقراطية بشكل واضح ومثّل في حركة البعث الإسلامي خطاً جديداً فقد ميّز الكواكبي بوضوح بين العربي وغير العربي .

وفي كتاب د . **محمد عمارة**(١٤) (الإسلام وقضايا العصر

(١٤) د . محمد عمارة : الإسلام وقضايا العصر ص٣٠ ، دار الوحدة ـ بيروت ، الطبعة الأولى ١٩٨٠ .

ص ٣٠ ، بعد أن يشير الكاتب إلى الحركات الإسلامية التي ناهضت الاستبداد العثماني (الوهابيّة) من بواكير حركة اليقظة العربية ، فهي لم تقف عند التجديد السلفي لعقائد الإسلام وهو موقف معادٍ لنمط الفكر العثماني المُثَقّل بالخرافات ، إنما تقدمت فأقامت دولة عربية ، والسنوسية والمهدية ، يقول : وإن كان النطاق المحلي حدّ من فعاليات حركات اليقظة فإن الأمر لم يكن كذلك مع الجامعة العربيّة الإسلاميّة ، قادها فيلسوف الإسلام وموقظ الشرق ومفجّر ثوراته الحديثة (جمال الدين الأفغاني) فهي قد بدأت في صورة مجابهة مع المد الاستعماري على امتداد الشرق بأكمله ، وأخذت تجدد حياة الأمة وتوقظها وتسلّحها عن طريق تجديد الإسلام ليتحوّل إلى طاقة ثورية .

مرحلة إثبات الوجود القومي :على الرغم من عنوان الجامعة الإسلامية الذي حجب عن البعض رؤية مكان القومية العربية في فكر هذا التيار ، فالأفغاني عربي النسب والحضارة والثقافة هو الذي يحدّد أن معيار القومي هو الذي يميز بين الأمم ، وعندما يحاول المفكر الفرنسي رنيان ١٨٩٢م نفي

عروبة تراث أمتنا وعروبة الأعلام بحجة أنهم مسلمون وليسوا عرباً يتصدى له الأفغاني مدافعاً عن العروبة **كمحتوى حضاري لاعرقي** ويضرب الأمثال بالجماعات البشرية التي تعربت بعد الفتح العربي .

والكواكبي من أبرز أعلام هذا التيار، وكذلك كان **عبدالحميد بن باديس بالجزائر** والمغرب الحارس الذي حرس القومية العربية وقاد ذلك الإنجاز التاريخي القومي الذي صنعته **جمعية العلماء الجزائريين** الأم الشرعيّة للثورة الجزائرية .

ثانياً ـ موقف تيار الجامعة الإسلامية من العلمانية :

إن موقف الجامعة الإسلامية من العلمانية كان الامتداد لموقف الإسلام الدين ، والإسلام الحضارة ، فقد بشرّ أعلامه بضرورة اتخاذ **الموقف المتوازن** المعبّر عن الشخصية الحضارية المتميزة للأمة ، وأنكروا واستنكروا **دعاة التغريب** الذين يريدون لنهضتنا أن تبدأ من حيث انتهى الأوربيون ، ودعوا إلى ما نسميه **(الأصالة والمعاصرة)** .

لا رجال دين في الإسلام : وأعلام تيار الجامعة الإسلامية وإن اعترفوا بوجود سلطة زمنية وسلطة روحية ، إلا أنهم يجعلون السلطة الروحية للدين تتجسّد في كل متدين به وليس في رجال لهذا الدين يتخذون لأنفسهم من السلطة والسلطان ما لا يشاركهم فيه الآخرون ، وكما جعلوا **السيادة والرقابة للأمة** على رجال السلطة الزمنية فكذلك جعلوا لها السيادة والرقابة على كل من يسيء استخدام سلطان الدين ، ذلك لأن إرادة الشعب غير المكره وغير المسلوب حريته قولاً وعملاً هي قانون ذلك الشعب المتبع الذي يجب على كل حاكم أن يكون خادماً له أميناً على تنفيذه [ومن منطلق الإسلام لم يروا بين السلطتين الزمنية والروحية ذلك **التناقض العدائي** الذي كان بينهما في الواقع الأوروبي وهو الذي أثمر تيار العلمانية هناك] .

الإمام محمد عبده وعلمانية الغرب : بعد أن يقرّ بأن الإسلام عقيدة وشريعة ، ينكر اعتراف الإسلام بما عرف في أوروبة بالسلطة الدينية ، تلك التي نشأت العلمانية لمقاومتها ، أما الإسلام فليس فيه **سلطة دينية** سوى سلطة الموعظة

الحسنة ، وهي سلطة خوّلها الله لكل المسلمين ، (هكذا كان موقف الإسلام المعاصر كما تجسدّ في الجامعة الإسلامية من قضيتي القومية والعلمانية واضحاً محدداً) .

ويقول د . عمارة :

ـ ولكن البرجوازية وطلائعها المثقفة قد تعلقت بليبرالية الغرب في السياسة والاقتصاد ، وكذلك تعلقت بعلمانيته وبشرّت بها في ربوع البلاد ، وزادها اقتناعاً بالعلمانية ، أنّ صورة الإسلام عندها كانت هي صورة **الإسلام التاريخ ، إسلام الاتحاد والترقي** ، فهي لم تتعرف على **الإسلام الحضارة** ، كما لم تتعرف بشكل كاف على الإسلام كما قدمته الجامعة الإسلامية تيار (الأفغاني ، الكواكبي ، محمد عبده ، ابن باديس) لأن إسلام هذه المدرسة كان **مضطهداً** من الاستعمار ومن تيار التغريب ، ومن تيار الجمود ، أضيف هنا : كمثال لاضطهاد الاستعمار للإسلام العقلاني ماقاله المفكر روجيه **جارودي عن الاستعمار الفرنسي بالجزائر**[(١٥)] :

(١٥) روجيه غارودي : الأصوليات المعاصرة أسبابها ونتائجها ص٥٩ ، دار عام ألفين ـ باريس ، ترجمة خليل أحمد خليل ١٩٩٢ الطبعة الأولى .

« لقد شجع وساند بطريقة مبرمجة العناصر الأكثر تأخراً وأصولية . في الوقت نفسه كان الاستعمار الفرنسي يضرب التقدميين الذين كانوا يعلمون إسلاماً منفتحاً ملبياً لحاجات عصرنا كالشيخ ابن باديس ، والشيخ البشير الإبراهيمي جعل منهم المعلمين الفكريين لقادة حركة التحرير ، إذن لم يكن هؤلاء الرواد في كفاحهم ضد الاستعمار معادين للفكر الغربي ، ولم يكونوا دعاة الإنغلاق على العقل » . كمّا أوردت الكاتبة :

ها هو المربي الذي أثّر في أوساط المثقفين ، يسافر إلى أوروبة /١٩١١/ لدراسة النظم التربوية ، أظهرت نزعة ساطع الحصري(١٦) **إلى الفردانية** ، وجهة نظر أنصار التغريب ، كما أظهرها إيمانه بالفكر العلمي والتقدم ، وبمكانة للدين في المجتمع ، أكثر نزوعاً إلى العلمانية . ولذا تطلع الحصري على الرغم من إمعانه في التغني بأمجاد العرب السالفة إلى **قوْدِ العرب في وجهة**

(١٦) وليام م كليڤلاند : ساطع الحصْري من الفكرة العثمانية إلى العروبة ، ترجمة ڤكتور سحاب ، دار الوحدة ـ بيروت ١٩٨٣ .

جديدة في المستقبل ، كتب يقول : إن سير الحضارة العالمية أصبح سيراً سريعاً فغدا من المستحيل على أية أمة أن تحافظ على كيانها دون أن تتسلح مادة ومعنى بأسلحة الحياة العصرية يجب أن نسلك مسالك التجديد في كل شيء : في اللغة والأدب ، والتربية ، الأخلاق ، العلم ، الفن ، السياسة والثقافة ، في البيت ، والمدرسة ، الشارع والحديقة .

التيار الإشتراكي :

إلى جانب التيار الديمقراطي الليبرالي ، المرتبط حيناً بحركة البعث الإسلامي ، والمتحرر منها حيناً آخر ، والذي نما وتطور ، في الفترة الممتدة بين مطلع القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين ، بدأ تسرب الإتجاه الاشتراكي مع مطلع القرن العشرين .

الثورة الروسية :

بعد النجاح الكبير الذي حققته الثورة الروسية وما عقد عليها من آمال في جميع أنحاء العالم ، بدأ تحوّل واضح في تاريخ

الفكر اليساري في الوطن العربي بدأ النشاط الشيوعي في مصر ، إقامة حركة نقابية عمالية ، وفي لبنان حركة نقابية . ثم نشأت الأحزاب القومية الاشتراكية ـ حزب البعث ، حركة القوميين العرب ، الاتحاد الاشتراكي .

وعلى صفحات مجلة الناقد أيضاً عدد كانون الثاني ١٩٩٤ ، يحاور السيّد محمد حسين فضل الله العلمانيين(١٩) . تحت عنوان (التعصب في الحالة الأصولية) ، يقول : نحن نلاحظ أن التجربة العلمانية التي استهلكها الشرقيون منذ عصر النهضة ، وحتى اليوم ، التي تحركت في دائرة الفكرة القومية أو الماركسية أو الاشتراكية ، أو بعض تجارب الفكرة الوطنية ، كانت تتخذ الحالة الشعورية الحادة وتعيش الجو عينه ، إننا نجد إلى جانب المفردات الدينية من كفر ، زنديق ، هرطقة ، كلمات كالرجعية ، والخيانة والعمالة والسقوط مما جعلنا نستهلك جماع القاموس المتوافر حتى أصبحنا نفزع إلى قاموس المفردات

(١٩) السيد محمد حسين فضل الله : مجلة الناقد عدد كانون الثاني ١٩٩٤ ، تحت عنوان (التعصب في الحالة الأصولية) .

الأجنبية ككلمة نازي وفاشي توتاليتاري وما أشبه ، فالحالة الحادّة التي يعيشها الإنسان المسلم في الشرق هي الحدة نفسها التي يعيشها الإنسان العلماني في هذا الشرق ، ظاهرة تتصل بالحالة الانفعالية الشرقية التي استطاعت الماركسية أن تزيدها عمقاً من خلال الأسلوب الماركسي في مواجهة الفكر المضاد أو الإنسان المضاد . وإنني أزعم بأن الإسلاميين عندما لجؤوا إلى بعض الأساليب الحادة كأنهم كانوا في المسألة السياسية يختزنون الأسلوب الماركسي في ممارستهم للإسلام . ويضيف : « ومع ذلك ثمة علماني قومي مختلف يعيش عقلانية هادئة في علمانيته » ، وثمة إسلامي يمتلك ثقافة واسعة ، وعقلاً هادئاً يمليان عليه مواقفه وتصرفاته ، في المسألة الفكرية والسياسية .

هزيمة ١٩٦٧ والتوجه الإسلامي :

إذا كانت نكبة فلسطين عام ١٩٤٨ ، إدانة للرعيل الأول من الإصلاحيين والقوميين فإن هزيمة ١٩٦٧ أدين بها التيار القومي الاشتراكي ، ظهرت حملة قوية من التشكيك بقيم الاشتراكية ، وقيم التقدم العربي وقيم اليسار ، انسحبت قوى

اليمين من ساحة النقاش والحساب لتضع اليسار العربي والثورة العربية أمام الحساب .

يقول : المستشرق الروسي فاسيلييف في كتابه تاريخ الجزيرة العربية[٢٠] ص٤٨٤ ، وبغية رفع شعارات جذابة لمواجهة فكرة القومية العربية والتضامن العربي المقترنة بالدعوة إلى التحولات الاجتماعية ، توجهت قوى اليمين إلى الإسلام ، إن تأثير الإسلام الهائل لم يخفت حتى في دول علمانية متحدثة مثل تركيا ، وفي أوائل السبعينات بدأت عملية الانبعاث الإسلامي ، وكان بوسع الطبقة الحاكمة استثمار الدين لأغراض معادية للإمبريالية أو مناهضة للاشتراكية على حد سواء .

مرحلة الستينات وعجز الفكر العربي الثوري :

لم يستطع الفكر العربي الاشتراكي الديمقراطي أن يمتلك اللوحة التطبيقية الواقعية التي تحدد مؤسسات المجتمع الاشتراكي

(٢٠) المستشرق الروسي فاسيلييف : تاريخ الجزيرة العربية ج ٤٨٤/١٧ ، طبع في الاتحاد السوفييتي ، ترجمة دار التقدم موسكو ١٩٨٦م ، ترجمة خيري الضامن ، وجلال ماشطة .

الديمقراطي المنشود ، ولم يستطع أن يتوغل في ميدان البحث والتحليل العلمي لأنه لا يمتلك أسلحة البحث والتحليل ، لا يمتلك النهج الفكري الواضح لهذا ارتدّ إلى المثالية العائمة ، وهكذا نَشَأَ فكر اشتراكي ديمقراطي أقرب إلى الأدب الاشتراكي ، ولكن الأدب لا يمكن أن يحلّ محل الفكر ليقود معركة التغيير الثوري المطلوب في النهضة .

والمؤسف أن القوى القومية والتقدمية لم تتحالف في وجه أعدائها في الداخل والخارج ، القوى التقدمية تنافرت وتباعدت ، وكل طرف حاول تصفية الأطراف الأخرى ، لم تكن هذه القوى على مستوى المسؤولية التاريخية .

وها نحن نقرأ اعترافات الذين كانوا في موقع المسؤولية وصنع القرار : في عدد آب[١٧] ١٩٩٣ (مجلة الناقد) جاء تحت عنوان : (**الصحوة المتأخرة**) السيرة الحزبية كما تبدو من المنفى (عاصم الجندي) يعلق على كتاب (أوكار الهزيمة) للمؤلف

(١٧) مجلة الناقد عدد آب ١٩٩٣ ، الكاتب عاصم الجندي ، تحت عنوان (الصحوة المتأخرة) .

هاني الفكيكي الذي كان عضواً في مجلس قيادة الثورة العراقي ، يقول الجندي : ما يدفع إلى القهر والضجر أن معظم السياسيين في الوطن العربي قاطبة الذين يكون لهم موقع وحظوة في الحكم ما إن يغادروا إلى المنفى حتى يبدؤوا بالبكاء على الديمقراطية والتفجع على الحريات ، لماذا صحوة الضمير هذه لا تجيئنا إلاّ في المنفى ؟!. فالأستاذ الفكيكي بعد أن مرّ على ما فعله الشيوعيون أيام ـ عبد الكريم قاسم ـ في الموصل وكركوك وبغداد وسواها من المدن العراقية . لام نفسه في صحوة ضمير تصوّرها تعفيه من المسؤولية وهو عضو نافذ في القيادة القطرية ، ثم يضيف : ويبدو أن كلاً من الشيوعيين والبعثيين في العراق لم يقصّر في حق الآخر سجناً وتعذيباً سحلاً وإعداماً على أعمدة الكهرباء في السنوات ١٩٥٧ ـ ١٩٦٣ ، فلماذا كل ذلك العنف ؟ ولماذا حين نلتقي شيوعيين وبعثيين من ذلك الزمان في منافيهم تجدهم يتباكون على الحرِّية ؟!

أما كاتب (أوكار الهزيمة)[١٨] الفكيكي عضو القيادة

(١٨) مجلة الناقد عدد آب ١٩٩٣ ، الكاتب عاصم الجندي ، تحت عنوان (الصحوة المتأخرة) .

القطريّة فهو يقول : كان التعذيب يجري بأكثر أشكاله بدائيّة وثأريّة ، وفي بعض الأحيان لم يكن يقصد انتزاع مزيد من المعلومات بقدر ما كان تكراراً ثأريّاً للتعذيب الذي تعرّضت له القوى التقدمية في عام ١٩٥٩ .

ويقول : لا أذكر أنني استنكرت التعذيب أو أدنته ، وكنت كغيري من ثوريي ذلك الزمان ، أرى أن حماية الثورة والحزب فوق أي اعتبار آخر ، وأن إذلال الخصم وإبادته هما من صميم العقيدة وأساليب الحزم الثوري .

التيار الإسلامي [السلفية ـ الأصولية]

منذ الثورة العربية كانت مسيرة الوطن العربي تتجه نحو الإنجازات القومية ، حتى الحركات ذات العنوان الديني ، بدءاً من الوهابية ـ السنوسية ـ جمعية العلماء في الجزائر ـ الجامعة الإسلامية ثم التنظيمات القومية الاشتراكية ، حزب البعث ـ حركة القوميين العرب ـ الاتحاد الاشتراكي ، فما هي مبررات التوجه نحو السلفية الدينية .

في كتابها الخوف من الحداثة ـ الإسلام والديمقراطية . أوردت الدكتورة الباحثة فاطمة المرنيسي أسباب إجهاض التيار التقدمي العربي تقول في ص ١٤٥ : « فقوى اليسار الحديثة المتعلمنة ، كالحركات التي تستمد أفكارها ، من الاشتراكية والماركسية لم تستطع مطلقاً ، وهي المكافحة والمطاردة ، أن تتم مشروعها عميقاً ، وهو الذي كان يمكن له الدخول في مخططات أخرى ومعالم مغايرة ..

ما أسباب الإجهاض : أسباب خارجية ، كما أوضحت الكاتبة ، وقد لعبت **الحرب الباردة** دوراً كبيراً ، في هذا الإجهاض للحركات الديمقراطية في العالم الإسلامي ، فكفاح أمريكا ضد اليسار الاشتراكي ، مثال ذلك إخفاق (مُصَدّق) في إيران ، بتدخل المخابرات المركزية الأمريكية .

وأسباب داخلية : تقول في ص٩٣ في البلدان التي اختارت الحداثة المعطرة بالاشتراكية ، تُكَمّ الأفواهُ ، تصف تقارير منظمة العفو الدولية في الثمانينات ، البلدان العربية الاشتراكية ، **بأنها حقل من التعذيب ، والتصفية الجسدية** .

وفي ص٩٥ تقول الكاتبة : إن تزويرات اللعبة البرلمانية ، **والتلاعب بالتصويت** ، كل ذلك أغرق الجماهير العربية ، في غموض المفاهيم والتعصب .

وأسباب بترولية : تقول في ص٢٠٩ : لا يجب أبداً نسيان البعد النفطي للأُصولية ، ولقد كان الوليد غير المتوقع ، للزواج الفظيع ، بين مكافحة اليسار ، والأفكار التقدمية ، وبين ذلك الحساب المصرفي ، الذي ليس له قومية ولا حدود .

وفي ص٧٩ تحدثت الكاتبة عن **العاملة (مينا)** تقول : العامل المطرود الذليل ، يستطيع أن يَلجَ القصر الكبير ، تستطيع أن تبدأ الحوار مع السماء ، مع الله ، إنّ الله لن يتخلى عنها ، كما تقول الماركسية ، وعلى كل حال ، فإنّ تخليه ، أقل بكثير من الدول المتسلطة ، التي تتغنى بالاشتراكية ، سيمنحها الله مفاهيم ، ليتحول ألمها إلى غضب ، وبرنامج للثأر .

وتضيف : **ويبقى الإرث الإسلامي** ، برغم تسييه ، وبرغم كلّ التلاعبات ، الماليّة والإدارية ، يملك غنى هائلاً ، ليعبر عن الأمل ، ويمنح **شيئين رئيسيين** : (معنى الهوية) ، (والقدرة على النضال) .

وفي ص١٠٩ تقول : ومع ذلك وحتى نحكم اعتماداً على ديناميكية حركات الاحتجاج ، المتجذرة في المقدس ، لا بدّ من الوصول عبرها إلى خلاصة ، مفادها أنه برغم كل المحاولات ، التلاعب بالقرآن ، فهناك في زاوية ما ، **عظمة تبثها تلك الآيات** ، شعور قوي بالذات ، وبالحقوق الأكثر تعرضاً

للانتهاك ، عظمة وشعور يعطيان **تلك الطاقة للغضب** ، **وتخيّل العالم بشكل آخر** .

الإسلام والسياسة :

تقول الكاتبة في ص ١٢٨ : نزل الإسلام على الأرض ليحقق المستحيل ، فالمشاكل الأرضية ليست صعبة الحل ، ويمكن حلّها في قدرة الجماعة على التفاهم وعلى الاتحاد ، وهذا ما يمنح الإسلام تلك الخاصة العملية ، ولهذا أيضاً **يصعب فصله عن السياسة** .

وتقول في ص ١٤١ : المساواة في الإسلام بين الحكام والمحكومين ، هي جوهر الإسلام السُّنّة ، **وهي فكرة جديدة وثورية** .

بصرخة الحق والباطل ، استطاع الإمام الخميني ، أن يهيّج الموجه ، التي طردت الشاه من إيران ، بعد أن دلت الكاتبة على المخزون (الرصيد) الفكري للإسلام ، في اجتذاب المعارضة .

تورد **أسباب العنف الأصولي** ، وكانت لها تلك النظرة الثاقبة ، التي أمسكت بجوهر القضية .

تقول في ص٤٦ : كيف استطاع السياسيون ، الذين يحاربون العقل ، أن ينجحوا في الأمس واليوم ، **بإفراغ الدين من جوهره ؟!** والإسلام أحد أكثر الأديان تبشيراً بالخير العميم ، في السيرة الإنسانية ، وتجيب الكاتبة :

بما أن المعارضة المثقفة ، كُبِتَتْ وحُوربت ، فَلم يستطع سوى الاحتجاج السياسي والإرهاب ، أن يفرض نفسه حالياً ، في مواجهة الاستبداد .

[عنف المُخرّب وحده يمكن أن يتحاور مع عنف الخليفة] .

هذا المخطط ، يفسر واقعنا الحالي ، حيث لا يستطيع احتلال الساحة بمصداقية إلا المعارضة الدينية .

وتقول في ص ٥٠ : يصبح الاحتجاج المتزمت ، الشكل الأمثل للمعارضة ، في إطار **إسلام مشوّه .**

وعن **مسؤولية العلم** تقول الكاتبة ص٦٦ : يعجب بعض الغربيين ، حالياً حين يلاحظ أنّ كليات العلوم ، والمعاهد

العلمية والتقنية ، هي مرتع الأصولية ، وأن عدداً كبيراً من المناضلين الإسلاميين يخرج منها .

وتجيب الكاتبة : بسبب الغموض السياسي ، الذي يكتنف فكرة الحريّة ، فكيف يمكن تكوين علميين في مجتمعات ، ترفض حريّة التفكير ، باعتبارها أنّها مخالفة للهويّة الإسلاميّة ، لقد فضّلت الدول العربية ، استيراد المنتجات التكنولوجية الجاهزة ولا سيّما الأسلحة ، بدلاً من الاعتماد على جهاز علمي قوي ، يحقق معجزتين : الاستثمار بواسطة جيش من الباحثين والمهندسين ، ممّا يحقق التوظيف الكامل ، ويؤمن التخلص من التبعيّة العسكريّة للغرب .

وفي ص٧٨ تقول : إنّ الدول العربية ، كتونس التي تعلن نفسها ليبراليّة ، والجزائر التي تعلن نفسها اشتراكيّة ، قد خلقت الكثير من الإبهام الثقافي ، بين السكان ، وبهذا الإبهام ، اصطبغت المعارضة ، التي تخيفها حالياً .

وعن مسؤولية الغرب تقول : التيّار الانفتاحي الإسلامي .. الجابري .. عمارة ، لم يترجم لهم ، ولم تتابعهم

محطات التلفزة الغربيّة ، بينما نجد القادة الإسلاميين يحتّلون الشاشات ، لأنّهم أكثر مطابقة للإسلام المتزمت .

الوصول غير المتكافئ إلى المعرفة ، تقول : في حين يصل أطفال الأغنياء فوراً إلى المعرفتين الحديثة والتقليدية ، يكون أطفال الفقراء مبعدين عن الحداثة . وعلى مستوى المعرفة ، يصنع التفاوت في كل مؤسّسة عتبة اللاّرجوع التي تشقّ العالم الإسلامي ، فتغذي فيه ذلك الحقد الشديد بين الطبقات .

التطرف : لم أسمع صوتاً أقوى من صوت الكاتبة عن قضية التطرف ، تقول في ص٤٥ : فيا يخصّ التضامن الاجتماعي ، يعطي الإسلام آمالاً هائلة للمؤمنين ، وقد تبيّن أنّه الثقافة لأكثر قدرة على التقاط ما يعانون من حرمان ، والتعبير عنه ، فالمقدس يثأر حالياً من أولئك الذين تلاعبوا به ، ويصبح كما كان عند مولده ، قوّة تهز الامتيازات ، أكان على المستوى لإقليمي أم العالمي .

وفي ص١١٦ : تتكلم الكاتبة بمنطق العقل ، ممتزجاً بالحنان لأخوي والإنساني ، تقول : صرخة الشباب الأصولي ، في

وقت الحاضر ، تعني في ما تعني دعوّة لذلك **الإسلام الرحمة** ، حيث يشعر الأغنياء في المدينة بضيق الفقراء ، صرختهم صرخة طفل المحروم من الحظوة ، ضمن العائلة العربيّة بالأمس العالميّة اليوم ، المحروم من المعرفة الحديثة ، ومن العلوم ، تلك العلوم التي تمنح العمل والكرامة .

وتقرع الكاتبة جرس الإنذار ، تقول في ص١١٧ :

إنّ تقزيم صرخة ذلك الشباب ، إلى مجرد إعلان الحرب ، على أغنياء العالم ، ذلك يعني ارتكاب غلطة خطيرة ، في قراءة ذلك الضيق وتحليله ، وعلى تحليل ذلك الضيق ، يعتمد بشكل ما السّلام في العالم . فإذا ركزنا آلة التصوير ، على عنف لأصولي ، فالاستراتيجيّة تقضي بقتله ، وبالمقابل إذا ركزّناها على ضيقه ، على خوفه من أن يكون منسيّاً في ذلك الاحتفال لكبير للمعرفة ، إذن الحل يكون بالسماح له بالمشاركة .

تجديد روح الإسلام : وبالمقابل تنبّه الكاتبة أيضاً أن ما يحدث حالياً للحركات الأصولية من كلّ نوع ، هو أنّها لا تعوق تجدد روح الإسلام فحسب ، بل إنها تصنع منه موكباً

جنائزياً للأحلام المتحجرة ، فالأصولية تخفض الذكاء إلى مستوى ردود الفعل ، الانفعالية في الوقت الحاضر والمستقبل ، وإن بائعي الآمال سيجروننا إلى الماضي (ص١٤٥) ، وتقول في ص٩٥ : يجب التمييز بين نوعين من الأُصوليّة :

١ ـ أصولية الدولة ، الثقافة الرسميّة ، العوائق في وجه التربيّة الديمقراطية .

٢ ـ الأُصولية الارتكاسيّة ، المعارضة الإسلاميّة .

وتضيف : كما يجب على الأخص تحاشي وضع سائر المسلمين بالجعبة نفسها ، فكما في أُوروبة هناك : الطبقات الحاكمة ، المثقفون ، الجماهير .

وعن المسألة الأُصولية أصدر المفكّر روجيه غارودي كتابه : (**الأُصوليّات الحديثة**[٢١] **أسبابها ونتائجها**) ، يقول : في الخليج زحفت أمريكا وحلفاؤها ، لوضع اليد على نفط الخليج ، قاعدة كلّ النّماء على الطريقة الغربيّة ، وكذلك لردع شعوب

---

(٢١) روجية غارودي : الأُصوليات المعاصرة ، مرجع سابق .

العالم الثالث ، على القيام بأية محاولة ، للنضال ضد نهب ثرواتها ، وللإظهار من خلال فرض حصار أنّ الولايات الأمريكية كانت ترغب ، في الحفاظ على هيمنتها على البلدان الغربيّة الأخرى ، إنّ سياسة استعماريّة كهذه ، أثارت بالطبع موجة أُصوليّة في كل العالم العربي ردّاً على هذا العدوان الاستعماري الجديد ، وأدت إلى حرب الأغنياء ضد الفقراء .

وعن التيار الإسلامي في الجزائر يقول غارودي :

التكوّن الرأسمالي في الاستهلاك ، لطبقات مميّزة في المدن ، أدّى إلى المديونيّة ورفاهية القادة المتعاونين اقتصادياً مع شركات غربية على حساب الجماهير أدى كل هذا إلى بطالة الشباب وجمهور اليائسين في هذا الجو ولدت الأُصولية ، وبعد أن يتفهم غارودي الأسباب والدوافع يقول : **إنّ الأُصوليّين يقدمون عن الإسلام الصورة التي يريد ألدّ أعدائه أن يعطوه إيّاها .** ويقول : إنّها مجرّد دعوة إلى الأشكال وأنّ عليهم صياغة فقه ، يناسب القرن العشرين **ليجدوا الحلّ للمشكلات الاجتماعية ،** [البطالة ، هجرة الريف ، التأمين الغذائي ، الديون ، المصرف

الدولي] ، فمثلاً اقتراحهم لحل مشكلة البطالة ، بعودة المرأة إلى البيت غير واقعي ، لأن ٧٪ فقط من النساء يعملن خارج المنزل .

وعن الأصوليّة يقول د . عبد الرحمن منيف[٢٢] :

الموجة السلفيّة ، التي تسود منطقة الشرق الأوسط الآن ، هي إحدى ردّات الفعل على القهر والظلم ، لأنظمة ولعلاقات فرضها الغرب ، سواء في إيران الشاه ، أو في المنطقة العربيّة ، فالغرب لا يرى القمع وعشرات من السلبيّات ، ويرى الموجة الدينيّة الخطرة .

أما الحلّ الذي يقترحه ، ويؤكد عليه الكاتب عبد الرحمن منيف ، فهو : استعادة الرأي العام لدوره ، استعادة الإنسان لإنسانيته ، وحقّه في المعرفة والمشاركة .

وأخيراً ألا يحق لنا أن نسمع المواطن الجزائري نفسه :

صحيفة الجزائر ٣٠ ديسمبر (كانون الأول) عام ١٩٩١ :

(٢٢) د . عبد الرحمن منيف : مجلة الناقد العدد السادس والثلاثون حزيران ١٩٩١ ، تحت عنوان : (المثقفون العرب والنظام الدولي الجديد) .

إننّا نحترم رأي الوطنيين الفرنسيين ، بما يرونه صالحاً لوطنهم ، ولكن هذا لا يعني ، أن لا نذكر ، بأنّ تقدمهم الحضاري والصناعي ، قد بُني على تألمات الشعب الجزائري وجراحاته ، من الاستغلال الذي لحقه ، من جرّاء وطنية فرنسا ، ولهذا .. إن أرادت فرنسا بحزبها الوطني أن تصفّي المهاجر الجزائري من أرضها ، فما عليها إلاّ أن تكون عادلة ، وتردّ ما نهبته من المواطنين الجزائريين طيلة ١٣٠ سنة ، لأنّ للجزائري حق في فرنسا ، لأنه شارك في بنائها وتعميرها ، ولهذا له الحق في التعويض ، الذي يناسب الجهد الذي أعطاه ، والدم الذي قدّمه الجزائريون لفرنسا في حروبها مع النازيين .

وفي صحيفة جزائرية أخرى ، البلاغ ٢٥ ديسمبر (كانون الأول) ١٩٩١ :

تحت عنوان : الديمقراطية ـ الرخاء للشمال ، ومزيد من الفقر للجنوب ، يقول : في الجزائر أزمة اقتصادية منذ أكثر من خمس سنوات ، وإذا قمنا بتحليل سطحي ، فسنجدها أزمة ماليّة حادّة ، من جرّاء سوء التسيير واللامبالاة لخيرات هذا الشعب

الجاهد ، وغيرها من أسباب معروفة من العامة والخاصة لحل هذه الأزمة ، لجأت الدولة إلى تغيير النظام السياسي والاقتصادي ، بنظام ديمقراطي ، في ظل اقتصاد السوق ، فغيّرت ، وما زالت تغيّر كل القوانين الاقتصادية والعقارية ، **مثل قانون وكالة عقارية الذي لا يشترط الجنسية لمشتري الأملاك العقارية الجزائرية** ، وهذا كلّه لفتح الأبواب لرؤوس الأموال الأجنبيّة التي **تستثمر دائماً في قطاعات ذات طابع استغلالي لموارد أوليّة** ، إن الشعب الجزائري المسلم ، ذاق الاشتراكية وعواقبها ، ويذوق اليوم الرأسمالية الليبراليّة ومرارتها ، بعدما حاولوا إلباسه لباس الجوع والخوف ، حيث أنّ هذين النظامين يقومان على المصالح الماديّة ، وعلى الصراع ، وعلى الاستغلال ، ومن هنا كثرت المذاهب الاقتصادية ، بسبب التقلّبات السيّاسيّة ، التي تفرض نظماً معينة ، لضمان مصالح الدول الغربية ، كان حتمياً للنظام العالمي الجديد ، بناء جسر الديمقراطية لفسح مجال للبلدان المصنّعة ، أن ترفع الإنتاج مستثمره أموالها وطاقتها تكنولوجيّاً .

الخوف من الفردية ـ الرحمة مقابل الحرية

في كتابها : (الخوف من الحداثة) تبحث الكاتبة د . فاطمة المرنيسي في مقومات الديمقراطية وتتناول الموروث الإسلامي بالتحليل والنقد .

المساواة :

في ص١٤٢ تقول : لا يمكن أن نفسرّ الإسلام السريع العجيب ، بالاعتماد فقط على حب العرب المؤمنين للقتال ، إننا بهذا ننسى عاملاً مهماً جداً ، هو إصرار القرآن على المساواة للجميع أيّاً كان العرق والأصل الاجتماعي ، هذا ما جعل من الإسلام رحّالةً رزيناً مطمئناً ، نفذ الإسلام إلى أماكن لم تصل إليها المسيحية ، في حدود ١٥٠٠م ، كان الإسلام قد أصبح قوة أساسية ، في كامل الأرخبيل الماليزي ، وعلى طول الساحل الصيني .

الفرديّة والرأي والحريّة :

وتقـول في ص١٣٣ : لم يكن الصراع بين الشرك (الحريـة والتعـدديـة) والإسلام معركـة على مـدينـة ، بـل كان معركـة فلكية من أجل احتلال السماء ، وامتلاك الزمن .

الإسلام كما الـديـانـات التوحيـديّـة لا يبشر بـالسلام ، إلا مقابل التضحية بالرغبة ، أو الهوى ، فالجاهليّة المملكة الجموحـة للهوى وللأنانية الفردية ، كان الإسلام عكس ذلك ، الرحمـة في نطاق الجماعة ، لقاء التضحية بالأهواء .

الرحمة مقابل الحريّة ـ الحريّة : مرادفة للرأي :

وفي ص ١١٨ تقول : وهنا تكمن عبقريـة الإسلام ، لا يعني ذلـك إقصـاء الرغبـة أو استئصـالهـا ، بل يجب إدارتهـا ، بحيث لا تتجاوز الحدود المقدسة ، فالإسلام لا يرفض شيئاً إنّه يدير ..

وفي ص١٢٠ : تنتقـل الكاتبـة من المـاضي إلى الحـاضر ، لتعلن أن تلك المفاهيم لم تعد تلائم الزمن الحـاضر فتقول : يجب على الأمــة أن تـؤصّـل أمنهــا في مجــال آخر غير منـع التفكير بحريّة ، ينبغي على المتعصبين أن يتدثّروا برحمتهم .

نزاع الإسلام والديمقراطية :

في ص١١٥ ـ ١١٦ ، تقول الكاتبة : الشرك يعني حرية الدين ، الشرك هو المصطلح الأكثر ملائمة لترجمة حريّة التفكير الوارد في المادة (١٨) من ميثاق إعلان حقوق الإنسان ، [وفي مفهوم الشرك هذا يكن **فعلاً نزاع الإسلام والديمقراطية كجدل فلسفي**] .

ص ١٢١ : كان للحريّة دائماً وضع غامض في الحضارة الإسلامية ، لم تتمكن أبداً من كسب وجودها النبيل ، بقيت مرتبطة بفوضى الجاهلية .

ص١٤٢ : الإسلام ليس سوى صرخة طويلة ضد الفرديّة وغطرستها .

وتقول : تحديات كثيرة ينبغي على الإسلام العصري أن يحلّها [الخوف من الفرديّة] .

وفي محطة حوار مع الكاتبة أقدم ما أورده الكاتب الكبير العقاد في كتاب (مطلع النور)[٢٣] ، يقول : كانت الحقبة

(٢٣) عبّاس محمود العقاد : مطلع النور أو طوالع البعثة المحمديّة ص٦٨ وما بعدها .

حقبة حائرة بين العبادات ، وقد كانت هذه الحيرة في جانب من جوانبها أثراً من آثار الجامعة القومية والتوق إلى ديانة جامعة غير ديانة الأصنام المتفرقة .

العصبية القبلية ـ سلطان القبيلة :

أغفلت الباحثة (وهي ترادف بين الشرك ـ حرية الدين ـ حرية التفكير ـ الفرديّة) العصبية القبلية ، وسلطان القبيلة ، فحرية العبادة لا تؤدّي بالضرورة إلى حرية التفكير ولا تؤدّي بالضرورة إلى حرية الرأي والفردية ، فلكل قبيلة معبودها الذي صنعه الأجداد والفرد خلية في جسم القبيلة . يقول العقاد : لم يكن المتدين منهم جميعاً يتنبه إلى الإبتداع في أمر أو دين إلا أن يسوقه الخروج على قومه والزراية بشرعة الآباء والأسلاف فيومئذ تنقلب المسألة من تصرف في الشعائر والإرتداد ، إلى النخوة العصبية والغيرة على الأحساب والأنساب[٢٤] .

(٢٤) عبّاس محمود العقاد : مطلع النور أو طوالع البعثة المحمديّة ص ٦٩ .

الفرديّة والعصبية القبليّة :

يقول الدكتور إحسان النص[٢٥] : والباحثون يكادون يجمعون على أنّ البدوي يتسم بفرديّة عنيفة تجعله يُؤثِر منفعته على أي أمر آخر ، ولكننا نجد هذه الفرديّة تذوب في أغلب الأحيان أمام النزعة القبليّة ، ومن هنا يظهر التناقض العجيب في خلق البدوي ، فهو على فرديته المسرفة لا يتردد في التضحية بحياته في سبيل جماعته ، مثال ذلك موقف لقيط الإياديّ الذي كان كاتباً في ديوان كسرى ، وقول دريد بن الصمّة :

وهل أنا إلا من غزية إن غوت غويْتُ وإن ترشَدْ غزية أرشد

وقول المقنّع الكندي عن قومه :

فإن أكلوا لحمي وفَرْتَ لحومَهم وإنْ هدموا مجدي بنيت لهم مجْدَا

وهذا يدلّنا أن صراع الإسلام لم يكن مع حرية الرأي الفرديّة بقدر ما كان صراعاً مع العصبية القبلية .

(٢٥) د . إحسان النص : العصبيّة القبليّة وأثرها في الشعر الأموي ١١٥/٢ وما بعدها ، دار اليقظة العربية ـ بيروت ١٩٦٣ .

الإسلام والديمقراطية :

الإسلام كدين استهدف التوازن الدقيق بين مصلحة الفرد ومصلحة الجماعة ﴿ لاَ تَظْلِمُونَ ولاَ تُظْلَمونَ ﴾ [البقرة : ٢٧٩/٢] ، وفي الحديث النبوي تصوير جميل لهذا التوازن الدقيق ، « إن قوماً ركبوا سفينة فصار لكل منهم موضع ، فنقر رجل منهم موضعه بفأسه ، فقالوا له : ماذا تصنع ؟ قال : هذا مكاني أصنع فيه ما أشاء ، فإن منعوه نجا ونجوا ، وإن تركوه هلك وهلكوا »[٢٧] .

وعن الحكم في الإسلام يقول د . مصطفى محمود[٢٨] : لم يكن ضعفاً في القرآن ، أنّه لم يحدد منهجاً سياسياً ، ولم يرسم دستوراً محدداً ، وإنّما كان ذلك أحد أدلة قوته ، وإعجازه ، فقد أراد الله أن يفتح سبيل الاجتهاد والأخذ بالعلوم واستنباط المناهج والأحكام من الظروف المتغيرة دون تكبيل بمنهج سماوي

(٢٧) صحيح البخاري : كتاب الشركة رقم الحديث ٢٣٦١ .

(٢٨) د . مصطفى محمود : الماركسية والإسلام ص١٨ ، دار المعارف بمصر ١٩٧٥ .

جامد محدّد ، واكتفى القرآن بإصدار توصيات عامة لها صفة الأزليّة عبر العصور : حريّة الفرد وكرامته وأمنه ـ العدالة الاجتماعيّة ، الملكية الفرديّة ، الضمان الجماعي ، الشورى .

الشورى[٢٩] :

وعن الشورى يقول د . عمارة : جعل القرآن منها إحدى الصفات التي تميز المؤمنين ﴿ والَّذينَ اسْتَجابُوا لِرَبِّهِم وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ ﴾ [الشورى : ٣٨/٤٢] ، وحديث النبي ﷺ : « المستشير معان والمستشار مؤتمن » ، نجد تراث دولة الرسول في المدينة السياسي حافل بالنماذج التي تجسد الشورى كفلسفة في السياسة فكل قرارات النبي السياسيّة والحربيّة كانت خاضعة للتشاور ، فنحن إذن أمام فلسفة سياسية تحدد الشورى جوهراً لنظام الحكم .

التوازن بين حقوق الفرد والجماعة :

لا نُفَاجَأ أن يكون المفكرّ **روجيه غارودي**[٣٠] متفهماً لهذا

---

(٢٩) **د . محمد عمارة : الإسلام وقضايا العصر ص٩٩ ومابعدها مرجع سابق .**

(٣٠) روجيه غارودي : ما يعد به الإسلام ، دار الوثبة دمشق ١٩٨٢ ، مرجع سابق ص ١٠٠ ـ ١٠١ .

التوازن في الإسلام ومستنكراً الفرديّة الغربية إذا تذكّرنا أنّ غارودي كانت الماركسيّة محطته الفكريّة قبل الإسلام فهو يقول : إنّ عقيدة تطوير البشريّة التاريخي المستطيل والذي يمكن للحداثة الغربية أن تكون نهاية مطافه ، لم تؤد إلى إنكار أو تحطيم الحضارات الأخرى فحسب ، بل أدّت أيضاً إلى إفقار الحضارة الغربية ذاتها حين تركت بُعدُ المجتمع يصاب بالضمور باسم فرديّتها ، وتركت بُعد الإنسان المتعالي يضمر باسم وضعيتها .

ويقول غارودي : وعلى النقيض من تلك الفردية المؤدية إلى سيادة شريعة الغاب ، ينظر الإسلام إلى الإنسان لا على أنه كيان منعزل بل على أنه جزء من كل أكبر ألا وهو الجماعة ، وهذه الجماعة تتوجه صوب غايات وأهداف ، تسمو على غاياتها نفسها ، وفيما تقول : إن المسلم هو جزء من (كلّ) ، فنحن لا نعني ما أشار إليه هيغل من تشبيه الإنسان بعضو في جسد متكامل ولا نعني ما ورد في المفهوم الفاشي من أنه لا قيمة للفرد ولا معنى له ولا كيان إلا بانتسابه إلى الدولة ، فالمساواة والحرية

في المنظور الإسلامي لا علاقة لهما بالإنسان كفرد مستقل بل إنهما مظهر من مظاهر ارتباط الإنسان بالمطلق ونتيجة لهذا الحضور الإلهي في وجدان الإنسان مما يتيح له اتخاذ موقف المحايد الناقد تجاه الأنظمة القائمة ، وتجاه كل محاولة للسيطرة على البشر .

وقول الكاتبة : « الرحمة مقابل الحريّة ، الحريّة مرادفة للرأي ـ السلام مقابل الرأي » ، **جوابي هنا كيف يمكن أن تتحقق الرحمة دون الحرية** ،؟! ولماذا صادر التاريخ السياسي للإسلام الحريّة ، إذا لم يكن لضرب الرحمة (العدالة) التي جاء بها القرآن . [ففي الماضي والحاضر الرأي مصادر من أجل **الامتيازات** فالجماهير لا هي نالت حقها بالرأي الحر ، ولا هي تمتع بحق المساواة والرحمة ، لأنهما **متلازمان**] .

الديمقراطية والمعارضة :

القوى التقدمية والقومية أقبلت على نقد لتجربتها وهي تتباكى على الديمقراطية ، ونأمل من جميع التيارات أن تستفيد من أخطاء الماضي ، فالديمقراطية التي نأمل بها هي الحوار العصري الحضاري بين جميع التيارات ، هي التنافس العادل في

ساحة الجماهير ، هي المعارضة المشروعة خارج الحكم لمراقبة سيادة القانون ، هي وضع مصالح الوطن فوق كل المصالح ، هي احترام عقل المواطن ورأيه وإنسانيته .

الخيال ـ أدمغتنا الكبيرة في الخارج

في كتابها (الخوف من الحداثة) ، أوردت الكاتبة د . فاطمة المرنيسي : مسألة الخيال والحريّة الفرديّة في الإسلام ، كإحدى معوقات الديمقراطية ، (ص١١٨ ـ ١٢٣) ، تقول : محاكمة الخيال ، **ملجأ الفرديّة الأصعب ترويضاً** ، قد نجبر أحداً على الخضوع لكن لا يمكن أبداً مراقبة خياله ، الحقيقة أنّ الخيال منذ خمسة عشر قرناً محكوم عليه بالجري خارج الحدود ، وليس مصادفة أن تكون أدمغتنا الكبيرة في باريس ، ولندن ، وأمريكا ، لا يمكن الاستمرار في منع الخيال وحريّة التأمل أو التخيّل ، لأن الخيال موطن الإبداع ، **مصدر غنىٰ العهد الإلكتروني** ، سائر الكلمات التي لها علاقة بحريّة التفكير والخلق ، والارتجال مدانة وموسومة بعلاقة الممنوع ، الجام الفكر والخيال عن المضي بحريّة متجذر في ذلك الخوف من الفرديّة المفرطة ، الكبرياء مُدان في القرآن ﴿ إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ مَن كَانَ

مُخْتَالاً فَخُوراً ﴾ [النساء : ٣٦/٤] ، الخيـال والاختيـال ، يعودان للمصدر نفسه ، التخيّل حـافل بـالمخاطر ، لأنّـه في واقع الأمر ، يشكّل القدرة على الخلق ، وعلى أشيـاء أخرى ، منهـا التصوّر ، التصوّر ممنـوع لأن الصور التي كان العرب يضعونهـا ، صـور الأصنـام ، تحـديّـات كثيرة ، ينبغي على الإسـلام العصري أن يحلّها ، التحريم على الفنانين أن يرسموا الوجه البشري .

ولنا وقفة حوار مع الباحثة :

١ ـ الاختيـال مـدان في القرآن : الخيـال والاختيـال ، من مصـدر واحـد ، ولكن المعنى مختلف[٣١] ، وهـذه إحــدى ميزات اللغـة العربيّــة ، الاختيــال المــدان في القرآن ، بمعنى الغرور ، الغرور هـو المـدان ، أي الـزهـو على الآخرين في اللغـة العربيّـة كلمـات لهـا الحروف نفسهـا مثل البَرْ ـ البر ، مـالُ فلان ـ مـالَ فلان ، نَهَرَ ـ نَهْر ، اختلاف حركة الحرف أعطى مدلولاً آخر .

(٣١) تقصد الكاتبة الآية ﴿ وَلاَ تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلاَ تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحاً إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾ [لقمان : ١٨/٣١] .
تفسير الجلالين : لا تمـلْ وجهـك عنهم تكبراً ، ولا تمشي خيـلاء ، مختـال : متبختر في مشيه ، فخور على الناس .

ولكن ماذا عن موقف الإسلام من الخيال المُبْدع ؟

يقـول المفكرّ روجيـه غـارودي[٣٢] : لم ينتصر الإسـلام في إسبانيا عن طريق غزو عسكري ، بل بواسطة (تحوّل ثقافي) ، فلسفـة ابن مصـارة القرطبي الـذي كان رائـداً ، لكل الفلسفـة الإسلاميّة في أوروبة ، تراث الرازي ، الطبيب الفيلسوف الـذي جـدّد ، في ردَّة فعـل عنيفـة ضـد أرسطـو ، الفكر الفلسفي السابق ، وهي الأوساط التي ولدت موسوعة (إخوان الصَّفـا) ، لقد كان (ابن عربي) يتحـدث عن إعمـال (الخيـال الفعّـال) ، وعنده أن حريّـة الفعل تسبق دائمـاً وجود الكائن ، والخيـال هو الوسيـط بين الفعل والوجـود ، ومـا هـو بلعبـة عشـوائيـة للفكر الشخصي ، إنّ فهم هذه العلاقة بين الله والكائنات والتي يوضحها الحـديث القـدسي التـالي : « كنت كنزاً مخبـوءاً فـأردت أن أُعْرَف » ، هـو في صلب فلسفـة الإشراق . ويقـول : بيـد أنّ الجوهريّ من إسهـام العلم الإسـلامي ، ليس فقـط الطريقـة

(٣٢) روجيـه غـارودي : الإسـلام في الغرب ص٥٥ ، ص١٦٠ ـ ١٦١ ، ص٢١٨ ، مرجع سابق .

التجريبيّة ، وعدداً مدهشاً من الاكتشافات ، ولكنّه الصلة التي يقيمها ، بين هذه الطريقة التجريبيّة التي أعطتنا وسائل نافذة للسيطرة على الطبيعة ، وبين الحكمة ، أي التأمل في الغايات والإيمان ، فحينما كان علماء ذروة الازدهار الإسلامي ، يدرسون الجولوجيا ـ علم طبقات الأرض ـ وعلم النبات والحيوان ، كان ذلك مقروناً دائماً بوعي العلماء ، بأنّهم خلفاء الله على الأرض ، كما يقول القرآن ، مسؤولون عن توازن الطبيعة ، وعلم البيئة بالنسبة للعالم المسلم هو ضرورة إلهيّة .

الخيال في الأعمال الفلسفية الإسلامية :

قصة « حي بن يقظان » لابن طفيل ، يتناول المشكلة من النقطة التي توقف عندها (ابن سينا) ، ويضم إليها إضافات ومساهمات (ابن باجة) لكي يجعل من خياله بهجة للفكر الإسلامي ، كل شخصيّة في القصة تُجسّدُ حقيقة روحيّة (حيّ) هو الحي دائماً ، الذي ينهض من الصلصال ، إلى الإشراقات الأكثر سمّواً للعقل ، وأضيف : أيضاً رسالة الغفران للمعري ، وقصص ألف ليلة وليلة ، القرآن والخيال : القرآن أغنى الخيال ،

وفتح لـه آفـاقـاً لا تحصى ، بـدءاً من : ﴿ قُـلِ انظُرُوا مَـاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرضِ ﴾ [يونس : ١٠/١٠١] .

في كتـابـه (التصـوير الفنيّ في القرآن)[٣٤] ـ يقـول سيـد قطب :

المعاني الذهنيّة ، والحالات النفسيّة ، والنماذج الإنسـانيّـة ، يخرجها التعبير القرآني صوراً شاخصة ، أو متحركة ، ويَعْدِلُ بها عن التعبير المجرد إلى الرسم المصور ، ها هو يتحدث عن الهزيمة ، فيرسم لها مشهداً كاملاً تبرز فيه الحركات الظاهرة ، والانفعالات المضمرة ، وتلتقي فيه الصورة الحسيّة بالصورة النفسيّة .

الآية : ﴿ يَاأَيُّهـا الَّـذين آمنُوا اذْكُرُوا نِعْمَـةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إذْ جَاءَتْكُم جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً وَجُنُوداً لَمْ تَرَوْهَـا وَكَـانَ اللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيراً إذ جـاؤوكم من فوقكم ، ومن أسفل منكم ، وإذا زاغت الأبصـار ، وبلغت القلوب الحنـاجر ، وتظنـون بـالله الظنـون ﴾ [الأحزاب : ٣٣/٩] . ويقـول سيّـد قطب : هنـاك

(٣٤) سيـد قطب : التصـوير الفني في القرآن ص ٤٥ ـ ٤٦ ، و٦٣ ـ ٦٤ ، دار الشروق ـ بيروت .

غرض من أغراض القرآن يبدو بطبيعته بعيداً عن الأسلوب التصويري ، لأنّه (**منطق**) ، و (**جدل**) ، ودعوة إلى الدين كان يتبادر إلى الفهم ، أنْ يكون الأسلوب الذهني هو الذي يتّبع فيها ، فاستخدام الأسلوب التصويري ، حتّى في هذ الغرض ، له دلالته الخاصة ، **على أن التصوير ، هو الأدا المفضلة في أسلوب القرآن** : ﴿ مَا اتَّخَذَ اللّهُ مِنْ وَلَد ، ومَا كا مَعَهُ مِنْ إلَهٍ إذَن لَذَهَبَ كُلُّ إلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلاَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ ﴾ [المؤمنون : ٢٣/٩١] .

الصورة الأولى : مشهد من مشاهد الطبيعة الصامتة الآية : ﴿ الَّذي خَلَقَ سَبْعَ سَموَاتٍ طِباقاً ، مَا تَرَى فِي خَلْق الرَّحْمنِ مِنْ تَفاوُتٍ فَارْجِعِ البَصَرَ هَل تَرَى مِنْ فُطورٍ ثُمَّ ارْجِ البَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إلَيْكَ البَصَرُ خاسِئاً وهُوَ حَسِيرٌ ﴾ [الملك ٦٧/٣ ـ ٤] .

٢ ـ وهذا منظر من مناظر الطبيعة المتحركة في الج يعرضه خطوة خطوة الآية : ﴿ اللّهُ الّذي يُرْسِلُ الرِّياحَ ، فَتُثي سَحاباً ، فَيَبْسُطَهُ فِي السَّماءِ كَيْفَ يَشاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفاً ، فَتَرَى

الوَدْقَ يَخْرُجُ مِن خِلالِهِ ، فَإذَا أصابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبـادِهِ إذا هُمْ يَسْتَبْشِرونَ ﴾ [الروم : ٣٠/٥٨] .

وتحت عنوان التخييل والتجسيم ـ يقول الكاتب :

قليل من صور القرآن هو الذي يعرض صامتاً ساكناً ، لغرض فنيّ ، يقتضي الصمت والسكون ، أما أغلب الصور ، ففيه حركة مضمرة أو ظاهرة ، هذه الحركة التي نسميّها التخييل الحسّي ، وظاهرة التجسيم ، تجسيم المعنويات المجردة ، وإبرازها أجساماً أو محسوسات الآيات : ﴿ والصُّبْحِ إذَا تَنَفَّسَ ﴾ [التكوير : ٨١/١٨] ، ﴿ يُغْشِي اللَّيْلَ يَطْلُبُهُ حَثِيثاً ﴾ [الأعراف : ٧/٥٤] ، ﴿ واللَّيْلِ إذا يَسْرِ ﴾ [الفجر : ٨٩/٤] ، ﴿ لا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَها أَن تُدْرِكَ القَمَر ، ولا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهارِ ﴾ [يس : ٣٦/٤] .

مخاطبة النبي وقد عزّ عليه إعراض المشركين : ﴿ وإنْ كانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إعْراضُهُم فَإنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبتَغِيَ نَفَقاً في الأَرْضِ أو سُلَّماً فِي السَّماءِ فَتَأْتِيَهُم بِآيَةٍ ﴾ [الأنعام : ٦/٣٥] ، الآية : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذينَ آمَنُوا لا تُبْطِلُوا صَدَقاتِكُمْ بِالْمَنِّ والأَذَى

كالّذي يُنْفِقُ مالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلاَ يُؤمِنُ بِاللهِ وَاليَومِ الأَخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ ﴾ [البقرة : ٢٦٤/٢] ، والآية : ﴿ وَأَرْسَلْنَا الرِّياحَ لَواقِحَ ﴾ [الحجر : ٢٢/١٥] .

التجسيم : الآية : ﴿ مَثَلُ الَّذين يُنْفِقونَ أَمْوالَهُمْ ، ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللهِ وَتَثْبِيتاً مِنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ .. ﴾ [البقرة : ٢٦٥/٢] ، الآية : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرةٍ طَيِّبَةٍ ﴾ [إبراهيم : ٢٤/١٤] .

تجسيم المعنويات : ﴿ وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِراً ﴾ [الكهف : ٤٩/١٨] .

تجسيم الذنوب : ﴿ وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ ﴾ [الأنعام : ٣١/٦] ، وكثيراً ما يجتمع التخييل والتجسيم ، ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِالحَقِّ عَلَى البَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ﴾ [الأنبياء : ١٨/٢١] .

وتحت عنوان الإسلام والفن التشكيلي[٣٥] ـ يقول د . محمد عمارة :

(٣٥) د . محمد عمارة : الإسلام وقضايا العصر ص٤٣ وما بعدها ، مرجع سابق .

موقف الإسلام من الفن التشكيلي ، وبالذات **النحت والتصوير** ، إحدى القضايا التي اتفق فيها المعادون للإسلام والعرب ، مع قطاع كبير من الفقهاء وأنصاف المثقفين ، من الذين وقفوا عند ظواهر النصوص ، فالشائع أنّ الإسلام حرّم تصوير المخلوقات الحية ، حيوانات كانت أم إنساناً ، وهذا التحريم أصاب الحضارة الإسلامية ، بما يشبه العقم ، أو الفقر في هذا الميدان .

القرآن والحاسّة الفنية ـ يقول د . عمارة :

فالإيمان بإعجاز القرآن مرهون بازدهار الحاسّة الفنية ، ثم من البداهة قاضية ، بأن يكون القرآن داعياً ، يذكي الحاسّة الفنيّة لدى المسلمين . امتلأت سور القرآن بما نسمّيه في الدراسات الأدبية والفنيّة ، **بالتعبير بالصور** ، أي رسم الصور الحسيّة ، كي تعبّر بها آياته عن المعقولات والأفكار ، فنحن أمام عشرات ، بل مئات ، من اللوحات التي تعبّر بالصور المحسوسة عن المعاني والمعقولات ، أي أمام التمثل والتصوير .

﴿ مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ

العَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتاً ، وَإِنَّ أَوْهَنَ البُيُوتِ لَبَيْتُ العَنْكَبُوتِ لَو كَانُوا يَعْلَمون ﴾ [العنكبوت : ٤١/٢٩] .

المقاصد والغايات :

القرآن الكريم ، لم يتخذ من التصوير للأحياء ، موقفاً معادياً بل لقد أناط الأمر ، بالمقاصد والغايات ، فإذا كانت الصور والتماثيل ، وسائل للشرك بالله ، كان الرفض لها والتحريم ، أمّا إذا كانت لمجرد الزينة ، ولإبراز براعة الإنسان ، وقدرته لتجميل الحياة ، وتنمية الحسّ الجمالي عند الإنسان ، وإذا كانت لتخليد القيم والمآثر ، فإنّها عندئذ ، تصبح من الطيبّات المرغوبة ، باعتبارها من نعم الله على الإنسان ، مثال ذلك بصدد الحديث عن قوم إبراهيم ، الآية : ﴿ إِذْ قَالَ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ ، مَا هَذِهِ التَّماثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَها عاكِفُونَ ، قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَابِدِينَ ، قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ ﴾ [الأنبياء : ٥٢/٢١ ـ ٥٤] .

أما الموطن الثاني ، الذي عرض فيه القرآن ، باللفظ

للحديث عن التماثيل ، فكان في معرض تعداد نعم الله ، نبيّه سليمان ، الآية : ﴿ يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِن مَحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْراً وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ﴾ [سبأ : ١٣/٣٤] ، فالتماثيل هنا وعند إنتفاء مظنة عبادتها ، هي من نعم الله على الإنسان .

الحديث النبوي :

إنّ النظرة الشاملة والاستقرائية ، للأحاديث النبوّية التي رُويت في الصور والتماثيل ، تؤكدّ أنّ التحريم مرهون ، بكون هذه الصور والتماثيل مظنة العبادة والإشراك بالله ، والأحاديث التي تنهى عن الصور والتماثيل ، إنّما كانت تعالج شؤون جماعة بشريّة قريبة عهد بالشرك والوثنية ، وما تزال في دور النقاهة ، فالمستهدف ليس الفن بل الوثنية ، عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها : « قدم رسول الله من سفر ، وقد اشتريت نمطاً ، فيه صورة ، فسترته على سهوة بيتي ، فلمّا دخل الرسول ، كره ما صنعت وقال : أتسترين الجدر يا عائشة ،

فطرحته فقطعته مرفقتين ، فقد رأيته متكئاً على إحداهما وفيها صورة » . [رواه أحمد بن حنبل] .

موقف الفقهاء :

يشير القرطبي : إلى اجتهاد فقهاء المالكيّة بجواز التماثيل .

العصر الحديث :

الإمام محمد عبده يعلن مباركة الإسلام لهذه الفنون وينبّه على دورها النافع في **تسجيل معالم الحياة وحفظها ، وفي ترقية الأذواق .**

وعن **الفن الإسلامي**[٣٦] **يقول المفكرّ غارودي :** ومن مميزات الفن الإسلامي ، ذلك الحيز الفارغ ، الذي يطالعك في محاريب المساجد ، فهي لا تحتوي أيّة صورة أو تمثال ، **فكأنّها توحي بفكرة الإله الذي لا يُرَى** ، لكنّه حيّ وموجود في كل مكان ، فإذا جعلنا لله مكاناً ، أو مثلناه بصورة ، وقعنا في

(٣٦) روجيه غارودي : ما يعد به الإسلام ص١٨٤ ، مرجع سابق .

أحضان الوثنية . ويقول : « **وليس في القرآن أيّ نص يحرّم التصوير** » .

أدمغتنا في الخارج :

وكون لنا أدمغة تعمل في الخارج ، هذا يؤكدّ أنّ المقدس لم يحجّم هذه الأدمغة ، وأنّهم هناك بسبب تقصيرنا في الإنفاق على البحث العلمي ، ولأنهم يجدون مستوى الدخل الذي يتناسب مع مؤهلاتهم العلمية ، وجهدهم المبذول ، ولأنّهم يريدون ... ربّما الابتعاد عن هموم الوطن .

في كتابها الخوف من الحداثة ـ الإسلام والديمقراطية ما زالت الكاتبة د . فاطمة المرنيسي تبحث عن المخاوف التي تعوق تحقيق الديمقراطية في الوطن العربي فتنقب **في العصر الجاهلي** .

تقول في ص١٤٦ : بائعوا الآمال سيجروننا إلى الماضي وسنجد بلاشك **الخوف من المرأة** مرتبطاً بقوّة ، بفوض الجاهلية ، هذا الخوف الذي لم يكلّف العرب أنفسهم عناء تحليله

لكي يتجاوزوه ، حاول الإسلام الإقلاع عن هذه المخاوف المتعلقة بالنساء ، ولكن سرعان ما اختفى من الوعي **نموذج الرسول** الذي كان يصرُّ على ضرورة التغيير .

وتحت عنوان الخوف من الماضي (**خلف الحجاب الإلهات**) تسأل : أكان وأد البنات قرباناً بشرّياً ؟ ، وتقول : بالرغم من أن الآيات تربط الوأد ربطاً مباشراً بمتطلبات الآلهة **فالطبري يميل إلى الاعتقاد أنّ فقر الآباء هو الدافع** للوأد ، مع أنه **كان مرغماً** عندما أنهى تفسير تلك الآية على القبول بالأمر القذر وهو أنّ الأصنام كانت تطالب بقتل البنات (ص١٥٤) .

الآية : ﴿ وكَذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴾ [الأنعام : ١٣٧/٦] .

وتعلق الكاتبة : « فكرة أن يكون الإله هو من يطلب قتل طفل ما ، إنها فكرة غير معقولة » .

وتحت عنوان **العزّى الإلهة الدموية** تقول : يربط البعض

وأد البنات بالقرابين البشريّة المفروضة من بعض الإلهات ، فهل القرابين مرتبطة بعبادتهم لتلك الآلهة (ص١٥٥) .

الرعب من الجاهلية ـ تقول : هذا الموقف الهلعي هو في رأيي ما يعلل أنه حتى الوقت الحاضر يبقى الرعب من الجاهلية كبيراً لدرجة تحاشي القيام بأي بحث علمي لتلك الحقبة .

تقول في ص١٥٧ : كلمة الجاهلية انتشرت في كل الصحف أثناء حرب الخليج ، كانت تعني وتوجز المشكلة التي جاء الإسلام لتسويتها إنها **مشكلة العنف** ، وفي (ص١٦٢) كان العنف السابق للإسلام شديداً لدرجة أنّ كثيراً من القبائل لم تعد تحترم حتى الأشهر الحرم .

وفي ص ١٤٨ : **الإلهات العربية** لم يكن حضنها سوى بركة من الدم ومدنيتها المقدسة إلا حقلاً واسعاً من الجرائم والمظالم التي لم تتوصل القرابين إلى إيقافها .

ترتبط العزّى في الذاكرة ، دائماً **بالفوضى والقتل** كما في الوقت الحاضر ، (الفقر ، العنف ، الفوضى) **سيحطمّ الإسلام**

هذا الثالوث ، ويتعلم العرب أن يؤالفوا الكواكب والزمن ، وأن يصنعوا حاضراً ، ولكن من أجل تحقيق ذلك ، كان لا بدّ من **تحطيم العزّى** ، **ومسحها من الذاكرة** ، وهكذا ينبغي **ألاّ يظهر المؤنث** بعد في حقل السلطة ، وسيصبح زمن السلطة النسائية الزمن الميت .

وفي ص ١٦٢ ـ ١٦٣ تقول : إنه زمن الصفر ، يعرف العرب تماماً أنّ الصفر ليس معناه اللاّشيء ما داموا هم من ملكوا عبقرية ردّ الاعتبار لهذا العدد ، مما أتاح للبشرية أن تقوم بقفزة ثقافية **هائلة** .

صارت المرأة متكافئة مع الرجل في كل ميادين الإسلام ، مؤمنة وتتحلى بالعقل والإرادة ، لكنها **غير مرئية في الحقل السياسي** .

لا يجب أبداً أن يكون للمرأة علاقة مع ما يقتل وما يؤدي إلى الفوضى ، القدرة على إدارة المدينة التي كانت تسبح بالدم تحت سلطة **العزّى واللات ومناة** .

في أيامنا هذه تشبه البرلمانات الحديثة قصور الخلفاء ، الرجال يناقشون مصير العالم والنساء ينتظرون في البيت محجبات وصامتات .

وفي ص١٦٤ تقول : لم يكن عرب الجاهلية يعرفون قانون الأبوّة مادامـوا يعتقدون بفنائهم . يقدّم الإسلام للعرب هديتين : (الحق بالأبوة) ، (والتاريخ) .

وفي ص ١٤٧ تقول : لقد تجرأ العرب على القيام بفعلين لم تستطع أية حضارة كبيرة أخرى أن تتجرأ عليها ، تجاهل الماضي من جهة ، ومن جهة أخرى حجب المؤنث ، مع أن الماضي والمؤنث هما القطبان اللذان يسمحان بالتأمل في مصدر كل الأهوال : الاختلاف .

وأبدأ هنا الحوار مع الكاتبة :

أولاً ـ مسألة وأد البنات :

اعتقاد الطبري أن فقر الآباء هو الدافع للوأد مأخوذ من القرآن ، الآية : ﴿ لاَ تَقْتُلوا أَوْلادكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ

وإيَّاكُمْ ﴾ [البقرة : ٢١٦/٢] ، ثم إن تلك الآلهة ليست سوى أصنام يتكلم باسمها الكهنة .

تفسير (في ظلال القرآن) لسيد قطب يقول[٣٨] : « شركاؤهم : شياطين الإنس والجن من الكهنة والسَّدنة ومن رؤساء القبائل بالتعاون ، يضعون التقاليد التي يخضع لها الأفراد في المجتمع » .

وأبرز الدكتور شوقي ضيف دور المنجمين[٣٩] الذين يدّعون الاستعانة بالجن لمعرفة المستقبل ، أضيف : ومع ذلك فالتاريخ يحدثنا عن القرابين البشرية التي تقدم للآلهة عند كثير من الشعوب .

الكهنة والرائي :

بوضح لنا العقاد في كتابه (مطلع النور) دور الكهنة

(٣٨) تفسير الآية ١٣٧ من سورة الأنعام ، سيد قطب تفسير في ظلال القرآن . المجلد (٣٠) ١٢١٨/٨ ، دار الشروق بيروت ـ القاهرة .

(٣٩) د . شوقي ضيف : العصر الجاهلي ص٩٥ وما بعدها ، دار المعارف بمصر ١٩٦٠م .

والرائي [٤٠] ، **فالإلهات إناث ، ولكن الكهنة والرائي من الرجال ، يقول** : ومن قديم الزمن وُجدَ الكاهن المختص ، ووُجد الرائي الملهم الذي يختاره **الإله** للنطق بلسانه والجهر **بوعده ووعيده** ، ولم يكن بين عمل الكاهن وعمل الرائي تناقض في مبدأ الأمر ، لأنّ كلام الرائي كان يحتاج إلى تفسير الكاهن وحل رموزه ، ونفي النفاية من خلفته واضطرابه ، إذ كان الغالب على الرائين أنّهم قوّة تملكهم حالة الوجد أو الجذبة أو **الصرع** ، **فيتدفقون** بالوعد والوعيد ، وينذرون الناس بالويل والثبور ، ويقولون كلاماً لا يذكرونه وهم مفيقون ، **فيحسب السامعون [أن الوثن المعبود يُجْري هذا الكلام على ألسنتهم]** ، وسُمِيَ الصرع من أجل هذا ، بالمرض الإلهي في الطب القديم .

ثانياً :

بالإضافة إلى ما قدمناه سابقاً عن الإلهات والكهنة ، فالمرأة في العصر الجاهلي باستثناء القبائل الأرستقراطية كانت في حالة ضعف .

---

(٤٠) عباس محمود العقاد : **مطلع النور** ص ٤٣ ، مرجع سابق .

في كتابها الحريم السياسي تقول الكاتبة ص١٤٦ :

فالمرأة سوف تدخل في منافسة مع الرجل لمشاطرته الثروات .

الآية : ﴿ لِلرِّجالِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الوَالِدانِ والأَقْرَبُون وللنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الوَالِدانِ والأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أو كَثُرَ نَصيباً مَفْروضاً ﴾ [النساء : ٧/٤] .

تقول : كانت هذه الآية وقع القنبلة بين سكان المدينة من الذكور ، فالرجال وحدهم كان لهم الحق بالميراث في الجزيرة العربية ، (وكانت النساء جزءاً من الأموال الموروثة) ، وحسب الكثيرين من الصحابة أنّ على الإسلام أن يغيّر كل شيء ما عدا امتيازاتهم تجاه النساء .

وفي ص ١٥٨ :

أوردت الكاتبة حكاية عمر بن معد يكرب الفارس الشجاع يحكي للخليفة عن إحدى مغامراته في الجاهلية :

قام بغارة على أرض بني كنانة ، ولما توجه لأكبر خيمة :

رأى امرأة ذات جمال نادر ، فتخلصت منه بالحيلة ، إذ أخبرته أن بنات عمّها في وادٍ قريب ، وفي ذلك الوادي التقى برجل شاب ، هو زوجها (**ربيعة بن مكدم**) الفارس الذي لا ندّ له وخسر عمر المعركة معه ، وتعلق الكاتبة : ذلك هو إذن ما كانت تعيش فيه المرأة الشابة في الجزيرة العربية **قبل الإسلام** عندما **لا تكون محاطة** بكل أعضاء قبيلتها أو قبيلة زوجها ، ولم تكن لكل الأزواج شجاعة البطل ربيعة ، فالنساء اللواتي كن متزوجات من أشخاص عاديين **ينتهين أسيرات وإماء لمن يختطفهن** .

من هنا ندرك أن الخوف من المرأة لا أساس له لأنها كانت **ضحية العنف** ، وليس من المعقول أن ترتبط المرأة في الذاكرة الجماعية بالعنف ، وليس لهذه الصورة أي وجود في **المعلقات** (مرآة العصر الجاهلي) على عكس ذلك ارتبطت المرأة بالنسيب والغزل ، وكرامة الرجل ، (عمرو بن كلثوم)[٤١] ، معلقة امرؤ القيس[٤٢] :

(٤١) شرح المعلقات السّبع للإمام الأديب الحسين الزوزني ، المكتبة الأموية =

أفـاطم مهـلاً بعض هـذا التـدلّـل
وإن كنت قـد أزمعتِ صرْمي فـأجملِ
أغرّك مني أن حبّـك قـاتلي وأنّك مهما تـأمرِ القلبَ يفعلِ

ثالثاً ـ طرحت الكاتبة مسألة :

الرعب من الجـاهليـة : وتقـول في ص١٥٧ : إننـا قليلو المعرفـة بتلـك الجـاهليـة على الرغم من أهميتهـا الكبرى في بنـاء **هويتنا** ، إن معرفة واكتشاف كل ماساهم في تكويننا كحضـارة شيء ضروري كي نعطي لأنفسنـا هويـة دينـاميـة شموليـة لأننـا بـذلـك نستعيـد هـذا الجزء من تراثنـا اللاشعوري الـذي يشكلّ

= دمشق ١٣٨٣هـ ـ ١٩٦٣م ، ص١٣٥ القصة المشهورة : حـاولت والـدة عمرو بن هند أن تؤدي لها والدة عمرو بن كلثوم ، وهي في ضيافتها ، خدمة بسيطة (تناولها طبق) لتكسب الرهان لابنها ، عندما قال أمام ندمائه : « ليس بالعرب من تأنف أمه من خدمة أمي » ، فصاحت والدة عمرو بن كلثوم : واذلاّه يـالتغلب ، فسمعها ابنها في الجوار ، فوثب إلى سيف معلّق فضرب به رأس عمرو بن هند ، ثم قال معلقته . التي صـارت كالنشيد الوطني لتغلب ، فقال القيرواني في ذلك : ألهى بني تغلب عن كل مكرّمة قصيدة قالها عمرو بن كلثوم .

(٤٢) شرح المعلقات للزوزني نفس المصدر ص٩٠ .

مخاوفنا المعاصرة مثل ذلك الوأد وتلك الإلهات المنتقمة اللائي يطالبن به .

أدهشني ما أوردته الكاتبة عن كوننا ممّرنا الجاهلية عند نقطة صفر ، ربّما لأنّ السنة الدراسية الأولى لي **في كلية الآداب اقتصرت على دراسة العصر الجاهلي والأدب الجاهلي** ، فالإنسان العربي في العصر الجاهلي كان موضع اهتمام الباحثين والكتاب .

يقول العقاد في كتابه مطلع النور[٤٣] :

لم يكن بين الجاهلين المتهودين والجاهليين الوثنيين في العادات والأخلاق إلا أن يكون فرق الشجاعة والرجولة في جانب الوثنيين يمتازون به على الذين تعودوا اللياذ بالآكام والتعلق في حربهم وسلمهم بذرائع المساومة والنفاق .

وعن العصر الجاهلي يقول الدكتور إحسان النص[٤٤] :

(٤٣) عبّاس محمود العقاد ، مطلع النور ص٤٣ ، مرجع سابق .

(٤٤) د . إحسان النص : العصبيّة القبليّة وأثرها في الشعر الأموي ص٧ وما بعدها ، دار اليقظة العربية ـ بيروت ١٩٦٣م .

قد رأيت لزاماً عليّ قبل التصدي لدراسة العصبية القبلية في عصر بني أُمية وأثرها في الشعر أن أمهد لهذه الدراسة بوقفة قصيرة أقفها عند الأنساب العربية ، فأتحدث بإيجاز عن أصولها وأقسامها ، وأعرض آراء الباحثين القدماء والمحدثين ثم أتحدث عن الجذعين الكبيرين اللذين انقسم إليهما العرب وهما العدنانيون والقحطانيون ثم وقفت بعد ذلك عند المجتمع القبلي ودرست أحواله والأسس التي يقوم عليها .

عناية الأمة بأنسابها :

لا نكاد نعرف أمة عنيتْ بأنسابها عناية الأمة العربية بها ، ولا نعرف أمة عاش ماضيها في حاضرها ، وكان له الأثر الفعّال في توجيه حياتها الاجتماعية والسياسية والأدبية كالأمة العربية ، آية ذلك كثرة ما تحصيه كتب المراجع من المؤلفات التي تناولت أنساب العرب وترجمت علماء النسب ، بل إن عناية العرب بالأنساب لم تكن وقفاً على أنساب الناس وقبائلهم وإنما تجاوزت ذلك فشملت أنساب الخيل وسلالتها .

وبفضل هؤلاء النّسابين نتعرف عما وقع بين مختلف القبائل من مصاهرات أو انفصال عن أصلها أو التحاقها بقبيلة أخرى ، وعن الأحلاف ومآخذها على الرغم أن جلّ كتب الأنساب شأناً ما زال مخطوطاً لم يطبع بعد .

وعن عصر المعلقات(٤٥) يقول : الإمام الأديب المحقق الزوزني : يظن لأول وهلة أنني تحت هذا العنوان أود التحدث عن الحياة العامة في العصر الذي أنتج المعلقات والواقع غير هذا ، ذلك لأن الكلام على حياة العرب في الجاهلية موضوع خصب غني خُطت فيه الكتب بعد الكتب ولمّا يستوف بعد ، وإن القارئ العربي ليجد له مصادر ومراجع كيفما التفت في خزائن الكتب ودور النشر ، أردت إذن بعصر المعلقات تحديد الفترة الزمنية التي سمعت أذن الدهر صوت أصحاب المعلقات .

وعن العصر الجاهلي يقول الدكتور ناصر الدين الأسد(٤٦) :

---

(٤٥) شرح المعلقات للإمام الزوزني ص٢١ مرجع سابق .

(٤٦) د . ناصر الدين الأسد : مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخيّة ، ص٩ ، ١١ ، ١٣ ، ١٩ ، دار المعارف بمصر ١٩٦٢م .

العصر الجاهلي في حساب الزمن أول عصر التاريخ العربي ، ونحن لا نستطيع أن نعرف قومنا في مراحل تطورهم ومواطن انتشارهم ، إذا لم نعرفهم في **موطنهم الأصيل** وفي عصرهم الأول . وعن الشعر الجاهلي يقول : **إنّه أصدق مصدر لدراسة حياة العربي وحياة قومه من حوله .**

وعن عرب الجاهلية يقول د . ناصر الدين : كانوا طبقات اجتماعية مختلفة متباينة تمثل المجتمعات الإنسانية التي مرّت بها البشريّة في تاريخها الطويل لذلك كان من الإخلال الفاضح بالمنهج السديد أن ينظر إلى العصر الجاهلي نظرة واحدة **وأن يُوصَم عرب الجاهلية جميعاً بالبداوة والجهالة .**

وأورد د . ناصر الدين آراء علماء الغرب :

يقول A.H.Sayce سايس : لم يكن المسلمون الذين انطلقوا من الجزيرة العربية وفتحوا العالم المسيحي وأسسوا الممالك إلا من نسل أولئك الذين كان لهم في القدم أثر عميق في مصير الشرق .

ويقول Homml هومل : إنّ الحضارة العربية الجنوبية بآلهتها ومذابحها ذات البخور ، ونقوشها وحصونها وقلاعها ، لا بدّ أن تكون مزدهرة متحضرة منذ الألف الأول قبل الميلاد ، وقال إنّ أهمية العرب في الشرق القديم تكمن في مجال الحضارة والدين ويكفي أن نذكر كلمتي البخور وعبادة النجوم لندرك أثر العرب في الأمم المجاورة لهم ولا سيا العبرانيين واليونان .

ويعقب فارمر H.G. farmar : إنّ الجزيرة العربية لم تصب بالعقم فمن هذه البلاد التي كانت مهد الساميين ولدت الحضارة الإسلامية التي صارت خير خلف .

ويقول د . ناصر الدين : « لا يكاد كتاب عربي قديم يخلو من ذكر الجاهلية وحياة أهلها » . ولكن الصفة الغالبة والسمة الظاهرة التي لا يكاد ويشذّ عنها كتاب قديم ، هي وصف تلك الجاهلية أنّها قليلة الحظ من كل عمران ورقي .

رابعاً ـ طرحت الكاتبة مسألة قانون الأبوة وقالت لم يكن عرب الجاهلية يعرفون قانون الأبوّة كما مرّ .

نظام الأبوة : يقول الدكتور إحسان النص :(٤٧)

والذي يعنينا من الأنساب العربية أننا نلاحظ **ظاهرتين** : أولاهما أن جداول الأنساب متصلة مستوفاة ، فهي تمضي من نقطة البدء (عدنان ، قحطان) .

والظاهرة الثانية : أنّ الأنساب العربية تقوم على **رابطة الأبوّة** أي أن لكل قبيلة أباً تنحدر منه وهكذا استقر تعريف القبيلة عند علماء اللغة والنسب على أنها الجماعة المنتمية إلى أب واحد ، ولا تشذ عن هذا الأصل إلا طائفة من القبائل لأنها تكونها يعود لعوامل أخرى .

أسماء القبائل : تميم ، كلب ، قيس ، وربما نُسِبَتْ القبيلة إلى الحاضنة كقبيلة (باهلة) مثلاً امرأة حضنت أبناء معن بن أعصر ، ومثلها عكل .

موقف القدماء من الأنساب العربية : نظر كثير من المؤرخين والباحثين القدماء بعين الشكّ إلى بعض ما رواه

(٤٧) د . إحسان النص : العصبيّة القبليّة ص ١٤ ـ ٢٨ ، مرجع سابق .

النسابون وقالوا : إن (الإمام مالك) سُئِل عن الرجل يرفع نسبه إلى آدم فَكَرِهَ ذلك ، وقال : من أين يعلم ؟ فقيل : إلى إسماعيل فأنكر ذلك أيضاً ، وقال من يخبره به . ويقول ابن خلدون : إن كثيراً من علماء السلف ذهبوا هذا المذهب .

موقف الباحثين المحدثين : أثار المستشرق نولدكه الشكّ في جداول الأنساب العربية التي خلفها الكلبي وابنه هشام ، وقد جارى سميث نولدكه في شكّه وقد جعل المنازعات السياسية في عصر بني أمية من أبرز الدوافع لوضع الأنساب العربية ومن المتشددين في حملتهم على الأنساب العربية المستشرق مرجليوث .

دراسات علمية : ويقول د . **إحسان النص :** ص ٢٠ كتابه العصبية القبلية وجّه بعض المستشرقين عنايتهم إلى موضوع انقسام العرب إلى قحطانيين وعدنانيين وقامت طائفة من العلماء بدراسة جماجم كل من القبائل العربية الجنوبية والشمالية فلم يتوصلوا إلى وجود فرق في التركيب الجسماني .

الأمومة : العالم الجرماني باخوفن ([Bachafen]) أثبت أن الزواج عند الأمم القديمة كان فوضوياً وأن زواج المشاركة كان شائعاً ، ولما كان من المتعذر في هذا الضرب من الزواج معرفة الأب ، كان النسب محصوراً في الأم ، وكان للأم لهذا السبب منزلة رفيعة في الهيئة الاجتماعية .

ورأي العالم (مكلينان) أن **زواج المشاركة** كان شائعاً بسبب **وأد البنات** عند بعض القبائل .

نقض (سميث) مباحث العرب في الأنساب واستند إلى **أمرين** :

أولها **الأمومة** التي كانت شائعة عند العرب وسائر الأمم القديمة .

والثاني **الطوطمية** وفي رأيه أنّ الرابطة الأبوية التي جعلها النسّابون العرب مبدأ تسلسل الأنساب العربية لم تُعرف إلا قبيل ظهور الإسلام مما يؤيد هذا أننا نجد عدداً من قبائل العرب يرجع نسبها إلى أصل أنثوي (كخندف) وتشخيص الوحدة

القبلية في صورة الأم من الصور الثابتة في اللغات السامية يلاحظ اشتقاق لفظ الأمّة من الأمّ .

رأي الباحثين العرب :

تابع بعضهم الباحثين الغربيين وأعلن شكّه في هذا التراث الذي خلّفه النسابون العرب ، ووقف بعضهم موقفاً وسطاً ، وجَنَحَ بعض الآخر إلى أن الأنساب العربية حقائق تاريخية ثابتة لا يجوز الطعن فيها ومن أشد المتحمسين لهذا الرأي المؤرخ **جورجي زيدان** الذي عرض لآراء باحثي الغرب وناقشها وردّ عليها وهو ينكر أن يكون العرب مرّوا بطور الأمومة أو عرفوا ظاهرة الطوطمية ، ويقرر أن العرب وغيرهم من الشعوب السامية لم يعرفوا إلا **نظاماً اجتماعياً واحداً هو نظام الأبوة .**

وعن الخوف من الحاضر « وزمن عالمي إجباري » :

تقول الكاتبة : إنّ الظنّ بأنّ الجماهير العربيّة بلهاء ، هذا يعني تناسي ، **أنّ شعباً يملك ذاكرة** ، لا يفقدها أبداً ، وإنّ من الصعب تجييشه ، فسائر حرفيي المدينة ، **يعرفون الهديّة** ، التي

قدّمها الرشيد إلى شارلمان ، إنّهم يعرفون أنه يموّل العلم ، ويهدي العجائب إلى أنداده .

وتقول : **هذه الذاكرة هي التي تنقذنا من الانحطاط** ، لأنّها تزودنا بالمعطيات التاريخية ، التي تعيد باستمرار ، وضع الحاضر بالمستقبل (الأمل) .

وتضيف : الرشيد الجدير بالاحترام ، لم يكن نصيراً للديمقراطيّة ولكنّه استخدم القرار ، الذي اغتصبه من الشعب ، في تأسيس مشاريع عليّة ، واقتصاديّة كبيرة ، أما الطغيان الحديث ، يصادر القرار ، ليطلب من اليابانيين ، ساعات كبير ، والخدع الأخرى ، بدلاً من أن يموّلوا العلم ، **وتربية شباب محكوم عليه باليأس** .

وعن الزمن العالمي الإجباري تقول :

نحن مجبرون على العيش ، حسب ساعة التقويم الغربي ، لأنّ تقويمنا لم يَعُد يُنظم سوى وقت الصلاة ، في حين أنّ هذه الصلاة ، لم يكن لها قصد ، إلاّ **من أجل ربط حياة مسلم بمسار الكواكب** .

وتضيف : إننا مفصولون عن تقويمنا الإسلامي ، وإنّنا أيضاً مفصولون أكثر ، عن التقويم الإلكتروني ، الذي هو تقويم الزمن الإجباري .

أجمل هديّة ، قدّمها الإسلام للعرب ، **هي تعليمهم رفع الرّأس** ، لقد علّمنا أن نسير ، ونظرنا مثبت على الشمس والكواكب ، **أي موصولون بعمق بالكون** ، ومدركون كوننا أجزاء منه ، إنّه التقليد الكوكبي للإسلام ، الذي يجب أن يُعَاد تنشيطه ، « إنّ فقدان ذلك البعد الكوني ، هو ما يشكّل مشكلة الهويّة ويخلق الاضطرابات » .

وتحت عنوان حداثة بلاعالمية : تقول : من الشاطئ العربي للبحر المتوسط يبدو الغرب قوّة عظمى تسحقنا وتحاصر أسواقنا ، وتسيطر على ثرواتنا ، وإمكانياتنا مهما قلّت ، وقد حوّلت حرب الخليج إحساسنا إلى يقين .

وتقدم الباحثة هذا الاقتراح : الغرب لا يستطيع أن يوجد ثقافة عالميّة ، إلاّ إذا **تخلّى عن احتكاره للمعرفة العلميّة** ،

والبرنامج الإلكتروني ، انطلاقاً من آلاف المثقفين والعلماء ، من العالم الثالث ، الذين يعيشون في الغرب ، بمقدورهم أن يصبحوا جسراً ، بين هذا الغرب القويّ جداً ، وتلك الثقافات الأخرى .

وفي الختام : نشكر جهود الكاتبة لأننا في هذه المرحلة الدقيقة ، نحتاج لمزيد من التفكير والحوار .

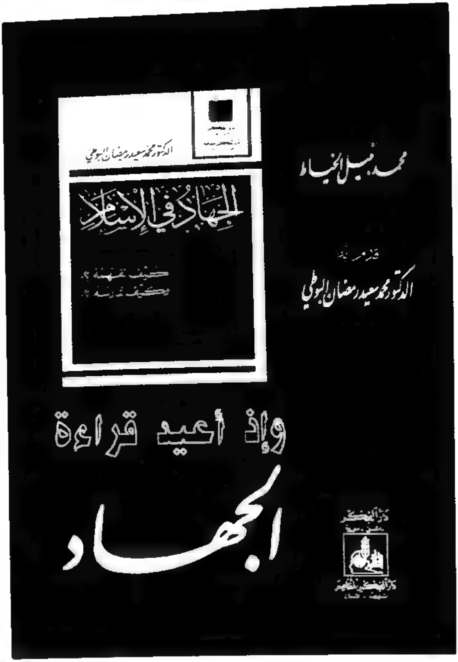

علم أنسجة النصوص

مفاتيح النص بيد القارئ

كشف طرائق التفكير بعد استكشاف الأفكار

مدخل لفهم العلاقة بين الإسلام والغرب على أبواب القرن الجديد

حوارات حول أكثر الأفكار الحضارية إثارة

قراءة جريئة لواقع النشر عربياً

الكتاب العربي وتحديات الثقافة

على مشارف القرن الحادي والعشرين

دار الفكر
دمشق - سورية

دار الفكر المعاصر

أساسيات الارتقاء بثقافة صناعة النشر

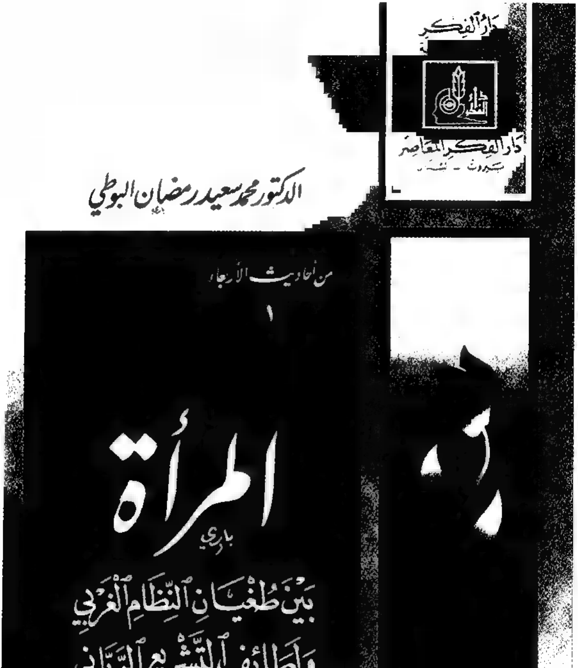
دار الفكر
دار الفكر المعاصر
بيروت - لبنان
الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي
من أحاديث الأربعاء
١
المرأة
بين طغيان النظام الغربي
ولطائف التشريع الرباني

الاسم الثلاثي:

تاريخ ومكان الولادة:

المهنة: المؤهل العلمي:

الاهتمامات الفكرية والثقافية:

☐ علمية ☐ دينية ☐ أدبية ☐ تاريخية ☐ ......

العنوان: الدولة المدينة

ص.ب: الهاتف

الفاكس E-Mail

هل ترغب في الحصول على النشرات الإعلانية بشكل دائم؟ ☐ نعم ☐ لا

بنك القارئ النهم

عزيزي القارئ ..املأ بيانات هذه البطاقة وأرسلها إلى عنوان دار الفكر لتتم تسجيلها في حسابك الخاص في بنك القارئ النهم، حيث يكون بإمكانك الحصول على نسخ مجانية من مطبوعاتنا تتناسب طرداً مع اقبالك على قراءة مطبوعات دار الفكر.

البيانات الدقيقة تساعدنا على خدمتك بالشكل الأمثل

رأيك يهمنا!

الرجاء ملء البيانات بعد قراءة الكتاب

موضوع الكتاب:	☐ هام جداً	☐ هام	☐ غير هام
الأفكار:	☐ قيمة	☐ مقبولة	☐ غير مقبولة
الأسلوب:	☐ واضح	☐ مقبول	☐ غير مقبول
الإخراج الفني:	☐ ممتاز	☐ مقبول	☐ غير مقبول
الطباعة:	☐ جيدة	☐ مقبولة	☐ غير مقبولة
مرافقات الكتاب:	☐ جيدة	☐ مفيدة	☐ غير مفيدة
إصدارات الدار:	☐ هامة	☐ مقبولة	☐ غير مقبولة
متابعتك لها:	☐ دائماً	☐ أحياناً	☐ نادراً

اقتراحات: ....

....

....

LIGHTS ON POLITICAL HAREM

Aḍwā' 'alā al-Ḥarīm al-Siyāsī

By:Khayrīyah al-Saqqah

أثار كتاب (الحريم السياسي) للمؤلفة فاطمة المرنيسي ردود فعل مختلفة؛ ففي حين أعجب بعض القراء به وأثنوا عليه، قال آخرون: إن فيه شططاً ملحوظاً يتصل بعديد من الموضوعات الحساسة التي طرحتها المؤلفة للمناقشة على نحو مستنكر.

أما كتاب (الخوف من الحداثة) فتحدثت فيه المؤلفة نفسها عن مخاوف معاصرة؛ تتعلق بقضية الديموقراطية والفردية، وتناولت بعض التيارات الإسلامية القديمة كالخوارج والمعتزلة، والحديثة كالسلفية. كما أشارت إلى موقف الإسلام من العلم والعقل.

وقد تعرضت الباحثة خيرية السقة لهذين الكتابين بالدرس والمناقشة والتحليل.. وتتبعتها في صفحات كتابها تتبعاً علماً.. فكان هذا الكتاب (أضواء ..) ليكشف لنا ماغمض..

Dar Al-Fikr
4145. Craig St., #269
Pittsburgh, PA 15213
USA
Phone: (412) 441-5226
Fax: (412) 441-8198
E-mail:info@fikr.com
http://www.fikr.com/

ISBN 1-57547-363-1
9 781575 473635